تاريـخ على جسدٍ عَارٍ

اســــم الكتــــاب: تـــاريخ علـــى جســـدٍ عـــارٍ
التـأليــــــــــف: نجـــــلاء شـــــهاب
نـــوع العمــــل: روايــــــــــــــــــة
مراجعـة وإخـراج فنـي: عمـــرو ســـالم ســـواح
رقـــم الإيـــداع: 2021/ 1538
التــــرقيم الــــدولي: 978-977-835-232-0
الناشــــــــــــر: دار زحمة كتاب ودار بوك جارد
١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر Facebook
Email za7ma-kotab@hotmail.com
bookguard.publishing@gmail.com
Tel 002 01205100596
002 01100662595

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار زحمة كتاب للنشر

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل
من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

تاريخ على جسدٍ عَارٍ

روايةَ

نجلاء شهاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أُهدي هذا الكتاب للأمهات؛ الأمهات فقط.

لا أحد يمكن أن يتحملَ عبءِ إنسانٍ من طفولته حتى الكبر إلا شخصٌ واحدٌ أحب بصدق، يحمل في قلبه حنان العالم، يمنح دون مقابل، هي الأم، قنديل البيت. يظل البيت مظلمًا إن غابت، ولعودتها رائحة تحمل الحب والأمان.

تحية لكل امرأة حددت هدفًا ووصلت إليه.

مُقَدِّمَة

في البداية، عندما راودتني فكرة هذا الكتاب، كُنت أظن أن العمل سهل، وأن النساء اللاتي تركن خلفهن تاريخًا نابضًا بالشرف والمعاناة عددهن قليل، لكني كلما بحثت عن واحدة وجدت بجانبها الكثيرات اللاتي يظهرن كنواتج للبحث، وأعترف أن هناك شخصيات لم أكن أعلم عنها شيئًا..

مما أسعدني وجعلني أصر على تكملة هذا العمل.. لتعلم كل فتاة في تاريخ المرأة، أنها وسام شرف على صدور آبائِهن؛ لأنهن لم يستسلمن للتبعية والقهر.

منذ نعومة أظفارها وهي تقهر.. كانت توأد عند ولادتها، كل ذنبها أنها أنثى، ألم يخلقها الله مثلك يا من قمت بوأدها حية؟!

على مر العصور والأزمان.. هناك أيادٍ دوّنت كل الأحداث التاريخية.. تاريخ الأمم، الكتب والأحداث من صراعات وانتصارات وهزائم.. تفكك واتحاد. شخصيات كثيرة ذكرها التاريخ وكان للرجال نصيب الأسد من تلك المدونات.

أما عن النساء؛ فأين تاريخ المرأة على مر الزمان؟

لا يذكر التاريخ المرأة في أي جانبٍ من جوانب الحياة إلا قليلًا، دورها المهمش كونها تلد وتربي، وهي من تنشئ أممًا من رجال ونساء.. لماذا لا يتحدث التاريخ عن بطولاتهن، ولا يذكرهن إلا إن كُنَّ عاهرات؟

المرأة أيضًا دورها كبيرٌ لا يحقر، ولا أتحدث عن الدور الإجباري، ألا وهو (الأمومة)، فهناك أدوار أخرى اختيارية.. فلنتحدث عن بزوغ نور الحضارات من نساء شرقيات نابغات، سنطل عليهن من خلال نافذة تطل على ربوع وروضة نسائية.

أحب أن أنوه على أن تلك الشخصيات كلها حقيقية من الواقع.. وضعتها بشكل درامي وحواري من خيالي، مع أخذ الأحداث الواقعية بالاعتبار وتصويرها برؤيتي، وقد أضع نقاط السلب والإيجاب لتلك الشخصية.. إن كان هناك ما خلفه التاريخ.

هناك مقولة أعجبتني؛

المرأة قلب العالم والرجل عقله، وإذا انفصلا فهو الموت أو الجنون.

"سلمان العودة"

لن أطيل عليكم في المقدمة.

*****

الرواية

استيقظَتْ من نومِها، فتحتْ عينيها بصعوبة بالغة وكأن أحدهم وضع كومة أحجار على جفنيها، لا تعلم كم الساعة الآن، ولِم المكان مُظلم؟ تجد نفسها ملقاة على الأرض، عارية، لا شيء يدثرها، بالكاد تفتح عينيها لترى ما حولها، ضوء خافت، الغرفة كلها مرايا تغطي الجدران، تقف في ذهولٍ من أمرها، تنظر إلى جسدها العاري بالمرآة، تقترب ببطء نحو المرايا لتجد جسدها مكتوبًا عليه أرقام كثيرة، لكنها لا تتذكر أي شيء، ما الذي جاء بها إلى هنا؟ ومن خلع عنها ثيابها، وكتب على جسدها تلك الأرقام العديدة أو التواريخ كما تبدو؟!

تتحسس جسدها العاري لتجدها محفورة بشكل غائر وليست مجرد كتابة.

لا تفهم أي شيء، ولا تستوعب ما يحدث، صداع شديد وآلام بالظهر، تريد أن ترتدي بعض الثياب، تبحث في الغرفة عن أي شيء ترتديه، لا يوجد إلا خزانة صغيرة قصيرة بضلفة واحدة ودرج يبدو أنه بمفتاح.

تذهب إليه، وبينما هي منهمكة في فتحه إذ تسمع صوت باب يفتح ويغلق سريعًا، تذهب لترى من هناك، لتجد أشياء مُلقاة على الأرض، والباب قد أُغلق، ملابس وأوراق وبعض الأطعمة وكشاف وساعة وأدوية.. بدأت ترتدي ثيابها، وكان المقاس مضبوطًا، تناولت القليل من الأطعمة، شربت بعض المياه، أخذت عقارًا مهدئًا، كُتِب خلف العلبة "للصداع"، فتحت الكشاف كي تستطلع المكان إن كان هناك باب آخر، وطبعًا كانت على يقينٍ من أنها مراقبة من خلف إحدى المرايا بالغرفة، أخذت تتحسس الحائط بيديها المرتعشتين، كان مبطنًا بالإسفنج ويغطيه قماشٌ ناعمٌ من القطيفة، مما كان يبعث لديها شعورًا بالراحة، كانت تعلم أن لن يكون هناك مخرج، ولكن كانت تتعلق ببعض الأفكار البالية، وكأن كل شيء قابل للتفاوض حتى أفكارها الساذجة. من الخوف وكثرة التفكير بدأت تشعر بدوار في رأسها لتقع على الأرض مغشيَّةً عليها.

تركض بسرعة عارمة والخوف يتصيد لها الأخطاء لتتعثر في أفكارها وأسئلة ليست لها إجابات.

من الذي يلحق بي؟

لماذا أهرب؟

ومِمَّن؟

لتجد سيارة تقف وتفتح لها بابها الخلفي، وفي ظلمة السيارة تسمع صوتًا من الداخل: اصعدي سريعًا.

صعدتْ السيارة بلا تردد بعد سماعها طلقات نارية من بعيد، تجلس مترددة، تنظر عبر الزجاج الخلفي للسيارة، تبتعد عن رجالٍ يرتدون ملابس يبدو أنها زي عسكري وطرابيش وبنادق غريبة، يبدو أنها قديمة الصنع، انتبهتْ أيضًا للسيارة فلم تكن منتبهة لها، إنها سيارة قديمة الطراز، تسأل نفسها بتعجب: في أي عصر أنا؟

توقفتْ السيارة أمام قصر له أسوار عالية وباب حديدي ضخم، بعد دقيقةٍ واحدةٍ فتحت أبواب القصر، دلفت السيارة للداخل وتوقفت أمام الباب الرئيسي للقصر، فتحت الخادمة الباب، البهو واسع وممتلئ بالتحف والصور الزيتية الضخمة، وأنوار الثريا المتدلية من السقف الثانِي للدور العلوي المفتوح على الدور السفلي، جعلت المكان باهرًا وأنيقًا.

جلست وأنا كلي حيرة. لا أعلم إلى أين سيقودني مصيري. سمعت صوت فتاة صغيرة من الأعلى تنزل درجات السلم مسرعة، مهللة، تسأل: "هل عدت يا جدي؟ اشتقت إليك.

رجل على مشارف الستين، لديه لحية بيضاء، الشيب يعلو مقدمة الرأس، كبعض النباتات التي تنمو بشكل عشوائي وغير مرتب. يحتضن الطفلة بحنو وحب ويطبع على وجنتيها قبلة سريعة، يخرج من مكتبه متجهًا نحوي، نظرت إليه نظرة حيرة، وأتساءل: من أنا؟ ومن أنت؟ ومن كان يطاردني؟

دون أن أتفوه بكلمة واحدة، قال لي: يا هدى، نشاطك السياسي سيلقي بكِ في المعتقلات والسجون، ودفاعك عن المرأة وحريتها طريق لن تجنِي منه إلا التعب والمعاناة، أنتِ هدى شعراوي، لا تقضي على اسمك.

إذن أنا هدى شعراوي؛ ناشطة سياسية، أدافع عن قضايا المرأة. حمدت الله أنني لم أكن سارقة أو خائنة يبحث عنها البوليس السياسي ويطاردها.

قطع حبل أفكاري حين قال لي: أعلم أنك منهكة وتودين الراحة بعد قطع مسافة كبيرة في السفر. اصعدي مع الخادمة وستدلك على غرفة بها كل ما تحتاجين، تصبحين على خير.

صعدت للغرفة، كانت واسعة بها سرير مريح مرتب بطريقة أنيقة، يوجد بالغرفة حمام شخصي.

وجدت ملابس أيضًا مريحة، بعد الاستحمام دخلت تحت الأغطية الوثيرة الدافئة، نمت بلا تفكير.

*****

في الصباح..

استيقظت مع أول ضوء شمس وزقزقة عصفور صغير على نافذة شباك الغرفة التي تطل على الحديقة، كان الصباح باهرًا، ونسمات الشتاء المكللة بعبير الزهور البرية تملأ المكان بالأسفل، طرقتْ الخادمة باب غرفتي.

- صباح الخير سيدتي.

- صباح النور.

- كيف حالك اليوم سيدة هدى؟

- بخير، الحمد لله.

- الإفطار جاهز بالأسفل، والباشا ينتظرك.

بدلتُ ثياب النوم ونزلت للأسفل لتناول الإفطار مع صاحب القصر.

جلستُ عن يمينه، ابتسم لي وسألني: هل نمتِ جيدًا؟

نظرت إليه وقلت: أجل؛ لقد كنت متعبة ولم أشعر بأي شيء من حولي.

رد بسؤال آخر: ولكن لماذا كنتِ في الشارع لهذا الوقت المتأخر؟ ألا تخشين منهم؟

نظرت إليه بنظرة تملؤها الحيرة: من هم سيدي؟

قال: من يطاردونك، أنت مطلوبة للتحقيق.

صُدمت بالبداية، لكنني لا أتذكر أي شيء، تناولت إفطاري في صمت.

تابعت حركة السير في الشارع من شرفة غرفتي بعد أن صعدت، العجيب بالأمر أن السيدات منتقبات، أسمع هتافًا من بعيد، هناك تجمع بشري، تمر ثورة أمام القصر بلافتات عريضة كتب عليها

"الحرية لسعد زغلول"، "سعد سعد يحيا سعد".

كان سعد زغلول حينها قد نفي إلى جزيرة تشيلي بالمحيط الهندي هو وأصدقاؤه؛ لتصديه للاحتلال البريطاني، هذا ما عرفته من خادمة القصر عندما جلبت لي فنجان قهوة، طلبت منها أن تحضر لي صحف اليوم، إننا بعام ١٩١٩، نظرت إلى التاريخ لأعرف بأي عام أنا، تصفحت الورق بشكل سريع فقد قررت أن أبحث عمَّا يساعدني لتذكُّر من أنا.

نزلت للأسفل، وطلبت من الخادمة إحضار الأوراق التي كنت أحملها بالأمس، ما زالت علامات الاستفهام تحاصرني من كل جانب، قررت نزول الشارع للبحث عن نفسي وسط الجموع، عندما رآني شاب متوسط العمر هتف بصوت عالٍ:

- هدى، إنها السيدة هدى.

اجتمع الشباب من حولي وفتيات لا يتجاوز عددهن العشر، انطلقت الأسئلة من ألسنتهم متدافعة الواحد تلو الآخر وأنا أشعر بدوار في رأسي، إلى أن وقعت مغشيَّة علي.

أنظر إلى المرايا التي تحيط بي من كل جانب والغرفة التي حُبست بها وتلك التواريخ التي حُفرت على جسدي، أنهض من على الأرض، أشعر بجوع شديد، أبحث عن أي مصدر للطعام، لا آثار لأي طعام، شعرت بأن ضوء الغرفة يزداد قليلًا، بدأت أبحث في الغرفة عمَّا يخرجني من حيرتي، تذكرت الأوراق والقلم والكشاف، أحضرتها وجلست على الأرض؛ فلم يكن هناك مقعد واحد بالغرفة ولا أي أثاث إلا تلك الخزانة المغلقة، ولا أعلم أين مفاتيحها.

أمسكت بالقلم، وبدأت أدون ما يحدث لي من أحداث، فرغم أنني حبيسة غرفة لكن أشعر أن العالم بأجمعه في تلك الغرفة.

انتهيت من تدوين كل شيء؛ لأنني أعتقد أن الورقة والقلم خلقا لذلك.

أمسكت بالكشاف، وبدأت أستكشف كل ركن وزاوية بالغرفة؛ فمستحيل ألَّا يكون هناك حمام شخصي بها، وقفت أمام الخزانة المغلقة، كانت غريبة الشكل وبها لوحة سوداء شفافة، هل يُعقل أنها تعمل باللمس؟ بدأت أضغط بأصبعي عليها، فجأة أُضيئت وظهرت علامات وأرقام وبصمة أصبع، أرجو أن يعمل ببصمة يدي، وضعت أصبعي السبابة فلم تعمل، جربت الإبهام ففتحت الخزانة، بداخلها أزرار عدة لا أعلم بمَ تتحكم تلك الأزرار، لا يوجد أمامي خيار آخر، سأجربها جميعًا.

سمعت صوت طقطقة، وفتحت المرايا واحدة تلو الأخرى لأجد ما لا يصدقه عقل، خلف كل مرآة عالم مختلف؛ غرفة للنوم، وغرفة للجلوس، ومطبخ، وحمام، وكل ما تتمنى وجوده. ارتحت قليلًا بعد تفحص غرفة النوم.

بسيطة لكنها تشمل كل ما أحتاج إليه، السرير واسع ونظيف ومريح، الحمام ممتلئ بفقاعات الصابون المغطس الذي جعلني أحتضنه من شدة التعب والاتساخ، خرجت مرتدية بيجامة نوم حريرية، كما أحبها تمامًا، وعطر الجسد الذي يفوح مني رائع. ممتلئة متخمة من كل شيء، حتى لم أعد أرغب بالطعام الذي وجدته، اكتفيت بتفاحة خضراء، ارتميت بعدها على السرير.

أفقتُ لأجدني بمكتب، ويلتف حولي عدد من الفتيات وبأيديهن زجاجات عطر، وتقول إحداهن لي:

- حمدًا لله على سلامتك أستاذة هدى.

سألتها بعين جاحظة: ماذا حدث؟

قالت: لقد أغشي عليكِ، وأحضرناكِ إلى مقرنا. أنا إستر، ناشطة سياسية، واليوم كنا بمظاهرة ضد العدوان البريطاني نطالب بالإفراج عن سعد زغلول.

فقلت لها: هل من الممكن إعادتي لنفس المكان الذي التقيتكم فيه؟

عدت إلى القصر وأنا مكتظة بالحيرة، تتلقفني الأبواب المغلقة، لا أعلم أي باب أطرق لأعلم الكثير عن نفسي وعن حياتي.

جاء المساء وعاد صاحب القصر من عمله، وجلس بالبهو الكبير بالدور السفلي وأنا أتابعه بنظري من فوق، وأسرعت الخطى لأجلس معه بضع لحظات لأعرف من هو وما يعرفه عني وعن حياتي وأين أعيش وأين أسرتي؟

ولكني لم أكن أود أن أعلمه أنني فاقدة الذاكرة ولا أتذكر شيئًا عن حياتي؛ كي لا يستغلني، فأنا لا أعرف من يكون.

كان الخدم يلقبونه بلقب باشا، وكنت أقول له اللقب نفسه عندما كنا نتبادل أطراف الحديث عني.

اليوم طلب مني أن أخبره إن كنت أود العودة لمنزلي، ورحبت سريعًا بالفكرة، وبالفعل.. أحضر السائق وأخبره أن يوصلني للمنزل. فرحت، وشعرت أنني هناك سأكون بأمان.

رحلت وذهبت لمنزلي فوجدت ابني محمدًا الذي كان قلقًا جدًّا لغيابي، وأخبرته أنني لا أتذكر أي شيء، وأخذ يخبرني بهدوء عن نشاطي السياسي ودعمي لسعد زغلول أنا وزوجي، وأننا منذ يومين فقط كنا نحمل مشاعل الثورة أيضًا لدعم سعد زغلول عن الجمعيات النسائية التي تدعم المرأة، وأنني أسست "لجنة الوفد المركزية للسيدات". وأخبرني أيضًا أنني أسست جمعية لرعاية الأطفال عام ١٩٠٧.

تمر الأيام ثم السنون لأستعيد الذاكرة.

بعد ثورة ١٩ مرّ وقت طويل، تحديدًا في عام ١٩٢٣ هذا تاريخ فارق في حياتي.

حضرت أول مؤتمر دولي للمرأة في روما عام ١٩٢٣، وكان معي نبوية موسى وسيزا نبراوي وأمينة سرها.

إننا التقينا بالسينيور موسوليني حاكم إيطاليا ثلاث مرات، وقد استقبلنا وصافح أعضاء المؤتمر واحدة واحدة، وعندما جاء دوري وقُدمت إليه كرئيسة وفد مصر، عبر عن جميل عواطفه ومشاعره نحو مصر، وقال إنه يراقب باهتمام حركات التحرير في مصر.

ولما عدت من مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي المذكور كونت الاتحاد النسائي المصري سنة ١٩٢٧.

وتوليت منصب رئاسته حتى عام ١٩٤٧.

كما كنت عضوًا مؤسسًا في "الاتحاد النسائي العربي" وصرت رئيسته في عام ١٩٣٥.

وبعد عشرين عامًا من تكوين هذا الاتحاد قمت بعقد ما سمي بالمؤتمر النسائي العربي سنة ١٩٤٤م، وقد حضرت مندوبات عن الأقطار العربية المختلفة (٢٦) واتخذت فيه قرارات، وفي مقدمتها:

المطالبة بالمساواة مع الرجل في الحقوق السياسية، وبالأخص حق الانتخاب.

تقييد حق الطلاق.

الحد من سلطة الولي أيًّا كان، وجعلها مماثلة لسلطة الوصي.

تقييد تعدد الزوجات إلا بإذن من القضاء في حالة العقم أو المرض غير القابل للشفاء.

الجمع بين الجنسين في مرحلتي الطفولة والتعليم الابتدائي.

ثم في نهاية القرارات:

(اقتراح: تقديم طلب بواسطة رئيسة المؤتمر إلى المجمع اللغوي في القاهرة والمجامع العلمية العربية بأن تحذف نون النسوة من اللغة العربية)

سأتوقف هنا قليلًا وأنا أكتب ما أعرفه وما مررت به من أحداث شخصية.

هدى شعراوي، لماذا طلبَتْ إلغاء نون النسوة؟

على حد قولها للمساواة، وهل يحق لها أن تساوي الرجل بالمرأة من خلال حرف. ولماذا نتوقف عند حرف؟ فهناك العديد والعديد من الفوارق الاجتماعية والعادات والتقاليد لوضع هوة بين الرجل والمرأة في المساواة. لا أعلم كيف كانت هدى شعراوي تفكر، وهل هذا الحرف يجعل النساء مفضلات، أم هي اللغة العربية ودقتها؟ أتعجب فعلًا من فعلها هذا!

حسنًا؛ فالتاريخ يحمل بين طياته الكثير من علامات التعجب، منها على سبيل المثال أن هدى شعراوي التي حاربت من أجل المرأة والمساواة بينها وبين الرجل، والتي توقفت عند حرف، لم تنصف

تلك المرأة التي أحبها محمد ابنها وتزوجها سرًّا.

تصرف آخر عجيب منها، وهو زواج محمد بك ابنها من المطربة المصرية فاطمة سري، فعندما علمت هدى شعراوي - مؤسسة أول حركة نسائية مصرية للدفاع عن حقوق المرأة- بما فعله ابنها مع المطربة غضبت بشدة وخافت على مكانتها، وطالبت ابنها بالابتعاد عن هذه المطربة، ولم تعترف بزواجه منها، ورغم محاولة فاطمة سري استعطاف هدى هانم شعراوي لكنها هددتها بالإيذاء إذا لم تبتعد عن ابنها؛ مما جعل محمد بك والمطربة يسافران إلى باريس لوضع ابنتهما ليلى هناك خوفًا من الفضيحة التي ستؤثر على سمعتهم.

كان من الأولى ألَّا تقف هدى شعراوي ضد امرأة، ولكن عندما يتوقف الأمر على سمعتك وأولادك.. نسينا كل الشعارات التي منحناها يومًا للحرية والدفاع عن المرأة.

الحق لا يكال بمكيالين.

أمسكت الورقة والقلم وبدأت أدون كل ما أراه في أحلامي، شعرت بأن مهمتي هنا هي تدوين تلك التواريخ والأحداث التي مررت بها، ماذا عن هدى وملك وإستر وفاطمة وإنجي؟

إنهن نساء صنعن التاريخ، وقفن في وجه المدفع مدافعات عن قضايا المرأة، ووهبن أنفسهن لكي تنال المرأة حريتها ولا تُحرم من التعليم، وتأخذ كل حقوقها، نساء رفعن القضية على أكتافهن.

بعد تدوين الأحداث كلها والأسامي.. سأخلد للنوم وسأدير مشغل الأسطوانات على موسيقى هادئة.

وضعت القلم والورقة بجانبي على المنضدة ورأيت ما لم أره بحياتي، كنت مع ثلاثة رجال وحدي والليل البهيم، لا أصدق ما الذي أحمله بيدي وبيد من معي، إنها قنابل، نحفر الأرض ونزرعها بداخلها، كنت أمارس عملي بشكل طبيعي وكأني متمرسة في ذلك. الليل موحش والطريق مرهق وطويل، علينا إنهاء العمل قبل بزوغ الفجر، أنهيت عملي وعدت مسرعة إلى منزلي، وعندما فتحت الباب وجدت رجالًا قبضوا عليَّ، وسحبوني لا أعلم إلى أين.

وسائل تعذيب تحيط بي وأنا وحدي، ورجال يتحدثون الفرنسية، وملابسي مقطعة وشعري أشعث، حافية القدمين، لا حول لي ولا قوة، أشعر بألم في كتفي وأحدهم يشير إليّ بأصبعه لأعترف وأخبرهم عن مكان القائد الجزائري للثورة والمقاومة الشعبية، لكنهم تفننوا في تعذيبي بشتى الوسائل لمدة سبعة عشر يومًا..

سبعة عشر يومًا من الألم وحدي بزنزانة فردية، لا يحيط بي إلا أربعة جدران تكسوها الغربة والألم والصقيع، يأخذونني كل يوم للتعذيب ويعيدونني وأنا منتهية الصلاحية للعيش والكرامة، مرت الأيام ولم أعترف بشيء. للحد الذي صعقوني بالكهرباء.. نحيلة الجسد لدرجة لم أتحمل، وحدث لي نزيف داخلي لمدة أسبوعين.

بقيت في المستشفى أتلقى العلاج هناك. بعد فترة العلاج، نفيت إلى فرنسا لمدة ثلاث سنوات وعدت عند تحرير الجزائر. بعد إلغاء حكم الإعدام بسبب المظاهرات التي قام بها المناضلون والمدافعون.

كان المحامي -وهو زوجي حاليًّا- يدافع عني مؤمنًا بي وبنضالي. الآن بعد مرور الكثير من الوقت أعلم أن تلك المحنة كانت سببًا في تخليد اسمي جميلة بوحريد.

تأقلمت على أحلامي اليومية التي أصحو وأغفو عليها، وبيدي يومياتي التي أدون بها كل امرأة أراها وأنتحل اسمها وجسدها لأعيش ما مرت به من أحداث قاسية؛ فالنساء بطبيعتهن مسالمات، ولكن أحيانًا يخرج الألم من شرنقته ليتحدث، ليثور، ليحكم العالم ويرشد الناس لموطن العلل لتفاديها في المستقبل والتطبع بما هو مقبول ومستساغ من الناس.

أتساءل لماذا أنا هنا بتلك الغرفة؟ هل لرؤية تلك الأحلام فقط وتدوينها؟ أم أنني وليدة صدفة خلقها الزمان والمكان؟

أتمنى أن أكون إحدى النساء اللاتي يقدمن أنفسهن فداء لوطنهن وللسيدات المظلومات اللاتي يعشن بألم وذل ومهانة.

يوجد هنا ما يكفيني لأعيش مائة عام؛ فالمكان يعج بالأطعمة المعلبة والعصائر والفاكهة، واعتدت أن أجد بجانب الباب العديد من الأصناف الشهية التي أحبها، أتناول وجباتي وأضع لهم حاوية

القمامة بجانب الباب، وإن جلست أراقب طوال الليل من سيفتح الباب، بالطبع لا يأتي أحد حتى أغط في نوم عميق وأبحر في أحلامي الثائرة.

لا أعلم الهدف من كتابة يومياتي عن تلك النساء والأحداث التي مررن بها، لأتساءل هل التاريخ لا يملك تلك الأحداث ويدونها بحرفية أم أن الحياة تعيد إحياء الأشياء الجميلة كي لا تموت وتندثر بلا رجعة؟

اليوم أشتاق لشمس الصباح وبذاكرتي أشياء كثيرة لا أعلم هل هي جزء من حياتي المفقودة، خبز طازج وكوب شاي ساخن وصوت أطفال يمرحون ويلعبون، ورجل طويل وسيم له رائحة عطر مميزة، أشعر بها الآن، أشعر أني بدوامة لا أعلم من أين أتيت وأي حياة تضمني.

لماذا أنا هنا؟

وأين عائلتي وأولادي؟

إنني وقعت ببحر حيرة أمواجه عالية متلاطمة، ولا أملك زورقًا للإبحار، كل ما أملكه مجداف واحد.

أحلق في سماء أحلامي وأخط بقلمي ما أراه.

اليوم.

ماذا عن اليوم، ربما لا أعلم التاريخ ولا اليوم ولا الساعة؛ فأنا منفصلة ومنعزلة عن العالم، أعيش بعالم خاص بي وحدي، ولا

أملك نافذة ولا شعاع شمس أستمد منه طاقة التفاؤل التي تعيرني الحياة.

أكاد أسمع نبضات قلبي وصوت صفير لا أعلم من أين يأتي، أشعر بوخز في يدي وكأنها سن حقنة.

بدأت أحب أحلامي ومدوناتي التي في الغالب ستصبح كتابًا من مؤلفاتي.

أحببت النوم كما لم أحب أي شيء في تلك الغرفة المظلمة. حسنًا، هناك العديد من الأحلام سأقصها عليكم.

أنا بنت الشاطئ، أعشق ضمته ورائحة رماله وعطره الذي يجذبني من آخر العالم.. ألبي نداء قلبي له وأهيم شوقًا وعشقًا ببلدي وموطني، وأبكي حين أفارقه؛ فهو الأب الحنون والأم الطيبة، كفضل أبي حين دفعني للتعلم والدراسة، ووقوفه بجانبي رغم معاناة الفتيات في تلقي التعليم حينها، اليوم أصبحت أول من تحاضر بالأزهر الشريف، ولي الشرف، والامتنان لوالدي، وليس هذا وحده بل حصلت على جائزة الملك فيصل في الآداب والدراسات الإسلامية، وعملت بالصحافة، وكنت أول امرأة تعمل بجريدة الأهرام، ولي مؤلفات عدة في فن الرواية والشعر. يكفي حديثًا عن نفسي، ولنكمل المحاضرة مع طلابي بجامعة الأزهر الشريف، موضوع محاضرة اليوم عن....

يستوقفها أحد طلابها يسأل عن اسمها الحقيقي، قالت: عائشة عبد الرحمن. مواليد ١٩١٣

شعرت بالسعادة وأنا أرى تلك الشخصيات النسائية ذات الملامح المصرية الجميلة، ذات العلم والأدب والأخلاق، بالرغم من كل ما واجهن من صعوبات إلا أنهن أكملن الطريق بلا تعب أو ملل.

أكتب هذا كله بيدي وأنا سعيدة بالأحداث التي أراها وأدونها، أشعر أنني لا أزال في أول الطريق، وهناك العديد والعديد من النساء اللاتي أحدثن فروقًا عدة في التاريخ، سواء ذُكرت أو همشت، فلنتوقف قليلًا هنا.. كيف لا نحصي ونعد؟

الحياة أنثى، والضحكة أنثى، والفرحة أنثى، ابنتك وأختك وأمك.

سأترك القلم، فلم أكتشف المكان بعد، ربما وجدت شيئًا آخر يسلي وحدتي هنا، فلا شيء يحيط بي إلا سكون وهدوء، كنت أحبهما، لكن الآن لم أعد أرغب بهما، اشتقت للزحام وللفوضى وللضوضاء، لا أحد يبقى على وتيرة واحدة بالحياة ويكون سعيدًا، التغيير مهم للروح وللعقل؛ فهو بمثابة إنعاش لأرواحنا، كوجبة أكسجين طازجة غير ملوثة تدخل الرئتين فتنعشهما وتجدد هواءهما.

حسنًا هناك العديد من الأدراج التي لم أبحث فيها بعد، وأيضًا الخزانة المغلقة. سأحاول تغيير روتين الحياة الممتلئ بالأحلام.

أريد الواقع، لقد اشتقت إليه، سأنهض الآن وأتابع ما نويت عمله، أدراج غرفة الجلوس، منضدة طويلة عليها أنتيكة تعود للعصر الفرعوني لوجه الملكة نفرتيتي. توجد لوحة زيتية أعلاها لنساء فقيرات يحملن جرار المياه على رؤوسهن ويرفعن بأيديهن طرفًا من الجلباب البلدي الذي ترتدينه، وتقريبًا يتشابهن في الشكل. مقاعد وثيرة للجلوس.. راديو....

ماذا؟ هل يوجد هنا راديو وأنا لا أعلم.. بعد محاولات عدة لتشغيله لا توجد إشارة. مللت؛ لا شيء هنا يُشعِرُ بالتسلية، سأخرج للـ...

سمعت فتح الباب وإغلاقه، نظرت سريعًا نحوه فلمحت الباب يغلق، وماذا؟ هل هذا شخص أعرفه؟

الملامح ليست غريبة، أو ربما أنا تخيلت ذلك، يذكرني بوجه مدرس مادة الدراسات، كنت أحفظ كل معلومة تقابلني كي أبهره بها عن كل شيء، كنت أشاكسه طوال الشرح، كلما تحدث عن شخصية نسائية مشهورة انبهرت بها وتمنيت أن أصبح بطلة يتحدث عني الناس. أو أُخلد في كتب التاريخ، كالملكة كليوباترا أو حتشبسوت أو شجرة الدر، نساء قويات، غيرن مجرى وتاريخ حياة ملوك حكموا العالم، تلك الحقبة الزمنية فيها الكثير من الغموض والسحر، ما زال العالم يقف حائرًا أمام حل ألغازها.

سأذهب إلى الباب لأرى ماذا أحضروا لي اليوم من غذاء، الغريب بالأمر أنهم يعرفون كل ما أحبه من أكلات حتى العصائر وأنواعها.

أكلت ووضعت كيس القمامة بجانب الباب، سأخلد للنوم الآن، فالأحلام لن تنتظرني كثيرًا.

أغلقت الأضواء بجانبي؛ فالعالم مخيف من حولي، وحيدة لا أعلم أين أنا، ولا يؤنس وحدتي إلا أحلامي والتواريخ التي على جسدي، يختفي جزء منها كلما كتبت عن حلم وشخصية وحدث ما، تختفي التواريخ بشكل طبيعي ولا تترك أثرًا على جسدي.

١٩٢٩؛

اليوم الأول لي بكلية الآداب، فتاة واحدة بين أربعة عشر شابًّا، الوحيدة التي التحقت بالجامعة آنذاك، لا أعير أحدًا اهتمامًا، خاصة من ينظرون إليّ نظرة استنكار على أني فتاة وأتعلم، لن يقلل هذا من مثابرتي وإصراري.

مرت السنون وتفوقت على جميع زملاء الدراسة وحصلت على الماجستير من جامعة فؤاد وحصلت على الدكتوراه، وكان موضوع الرسالة عن رواية ألف ليلة وليلة، ليخلد اسمي سهير القلماوي؛ نظرًا لما واجهته من نقد واستنكار لرسالة الدكتوراه.

عام ١٩٥٦؛ عملتُ أستاذًا للأدب العربي المعاصر، ثم رئيسة لقسم اللغة العربية بكلية الآداب في الجامعة العريقة ولمدة تسع سنوات.

ولدت أنا سهير القلماوي في طنطا، ودرست في المدرسة الأمريكية للبنات هناك، ثم أقدمت على تسجيل اسمي للدراسة بجامعة فؤاد الأول مع بعض الفتيات الأخريات في سابقة كانت الأولى من نوعها.

أُعجب عميد كلية الآداب آنذاك د.طه حسين بحماسي، وشجعني وساعدني أن أكتب في مجلة الجامعة المصرية، وما لبثت أن أصبحت محررة بها لتبدأ بعد ذلك مسيرة طويلة في عالم الكتابة والصحافة.

كما انضمت القلماوي للبرلمان المصري سنة ١٩٦٧ وشاركت في تأسيس معرض الكتاب؛ فقد أرادت أن تكون أعمال الأدب العالمي متاحة أمام جميع المصريين، وشجعت إقامة عديد من المكتبات والمشروعات التي عنيت بترجمة كلاسيكيات الأدب العالمي وتوفيرها في طبعة شعبية لتصبح في متناول الجميع، وكانت هي أيضًا من قدمت الأدب المصري المعاصر كفرع من فروع الدراسة بكلية الآداب التي سيطر عليها -ولا يزال- الأدب العربي الكلاسيكي.

أترك هذا العالم لأحلق بطائرة تسللت إليها من شدة حبي وتعلقي بالطيران، لأثبت أن المرأة تستطيع أن تعمل كل شيء؛ فحصلت على رخصة قيادة طائرة لعام ١٩٣٣ رقم ٣٤ على مستوى القطر المصري.

كنت في السادسة والعشرين من عمري، وكان أبي من يشجعني. رقمي ٣٤ أي لم يتخرج قبلي على مستوى المملكة المصرية سوى ٣٣ طيارًا فقط، جميعهم من الرجال، وبذلك أُصبحُ أول فتاة مصرية عربية إفريقية أحصل على هذه الإجازة.

أنا لطفية النادي.

أول فتاة مصرية عربية أفريقية تحصل على هذه الإجازة.

علاوة على ذلك، تعد لطفية النادي أول امرأة مصرية تقود طائرة بين القاهرة والإسكندرية.

لكن هنا توقفت عن الأحلام وعن الواقع والعبث والجد وكل شيء لأحصل على نتيجة واحدة؛ وهي أن الأب هو سند الفتاة ولا أحد غيره؛ فكل النساء اللاتي نجحن في مجالهن ودراستهن كان الأب عاملًا أساسيًّا ارتكزت عليه الفتاة في طريق نجاحها. فلا تتركوا بناتكم لا يَعْلَمن أين يضعن أقدامهن، من أين يبدأ الطريق وينتهي؛ فأنتم الأمل في نجاحهن وفشلهن.

بين شوارع إنجلترا وأزقتها أتمايل فرحًا مع بعض الأصدقاء، فبعض البلدان تختلف عن طبيعتنا الشرقية، فتشعر أنك حر في كل شيء، لا يوجد من يرصد تحركاتك، كلامك، مشيتك؛ فأنت غير مطالب بتبريرات حمقاء لكل ما تفعله.

ذهبت هناك لإكمال رسالتي الماجستير والدكتوراه. الماجستير بـ (التوصيل الحراري للغازات)، والدكتوراه بـ (تأثير الأشعة السينية في الأشياء المختلفة.. الإشعاع الذري) فكان تخصصي نادرًا وقتها؛ لذا أعطوني لقب مسي كوري الشرق. كان حلمي هو أن أجعل الطاقة الذرية قرص دواء متداولًا كالأسبرين للشفاء من مرض السرطان؛ فأمي تألمت بما يكفيني لأفعل لها المستحيل للشفاء، عشت أحلم بهذا ما بين أبحاث ومعامل وسهر وتجارب إلى أن كان اليوم.

في ٥ أغسطس ١٩٥٢ وأثناء زيارتها للولايات المتحدة الأميركية لتفقد عدة مراكز بحثية هناك، وفي طريقها إلى جامعة كاليفورنيا ظهرت إحدى الشاحنات الكبيرة المسرعة فجأة لتطيح بسيارتها لتسقط من أعلى الطريق الجبلي وتلقى حتفها في الحال، بينما استطاع السائق الذي كان بصحبتها القفز من السيارة قبل اصطدامها بلحظات، واختفى للأبد، مما أثار الشبهات حول مصرعها الذي ظل لغزًا حتى اليوم.

النهايات دائمًا تأتي كالرياح التي لا تشهيها سفينة في بحر، لكنها تأتي برعونة وقوة لتترك أثرها بشدة علينا. النجاح طريق مكلل بالتعب والشقاء، كذَب من قال إن النجاح يأتي بسهولة ويسر وبلا

تعب، فمن جد وجد، ولكل مجتهد نصيب.

أشعر بيدي تؤلمني ثانية وكأن إبرة أو شوكة بداخلها، وشيء ما له طعم مر بحلقي، فتحت عيني لأرى أي شيء فلم أجد إلا ضوءًا باهتًا بعيدًا، أغلقتها مرة أخرى بينما كل شيء بارد من حولي كصقيع يناير. هل أنا بالشتاء أم بالصيف أم أن برودة الحياة من حولي جعلتني أشعر بالصقيع؟ فالحياة والوحدة كفيلان بأن تشعر بكل الأشياء ونقيضها معًا.

الملل يقتلني كل صباح ومساء، لولا تلك الأحلام التي أراها وأعيشها لكنت الآن منتحرة. أتذكر أنني كنت أحب القراءة، ولدي مكتبتي الخاصة بمنزلي، لكن لا أتذكر الكثير عن حياتي، يومياتي بين زوجي وأولادي، أو ربما أخطأت ولم أتزوج بعد.

حسنًا جاء موعد النوم ومغامراتي..

باريس مدينة الأزياء والعطور، اليوم حفل سيدة الغناء العربي على ساحة مسرح الأولمبيا بباريس.

أتابع أنا - مقدمة البرامج الإعلامية سلوى حجازي - تغطية إعلامية لحفل أم كلثوم بباريس.. أفيش أنيق يتألق حاملًا اسم أم كلثوم.. مئات بل آلاف حضروا لحفل أم كلثوم. أرافقها لتغطية الحفل الغنائي. البوليس الفرنسي يتولى تنظيم الحفل.. وَهَبَتْ أم كلثوم أجره العالي بناء على طلبها لتتبرع به لوطنها في المجهود الحربي وهو ٢٠٠ ألف فرانك.

أنقل كواليسه الرائعة وحب الناس لها، ١٩٦٧ على مسرح الأولمبيا تغني أم كلثوم رائعة الكاتب أحمد شفيق كامل وتلحين الموسيقار محمد عبد الوهاب، أنت عمري. تشدو والجميع منبهر، بصمت يتابعون غناءها، فأتابع عيونهم المتعلقة بها رغم عدم فهم الكلمات إلا أنهم يحترمون الفن ويقدرون الفنان.

انتهى الحفل، وسألت الفنانات اللاتي حضرن الحفل عن رأيهن؛ فقالت واحدة: كأنني بمعبد، وأخرى قالت: إنني أتعلم منها التعبير الدرامي والأداء.

عدنا إلى القاهرة وانتهى الحفل على أحسن وجه.. أتابع عملي بالتلفزيون.. توقفت عن كتابة الشعر بعد ديواني وحصولي على جائزة الميدالية الذهبية في الشعر من أكاديمية الشعر الفرنسية. أعلم أن شعري حزين والكثير حدثني عن تغيير نمط الكتابة. أذكر عندما قال لي كامل الشناوي: أبحث عن خيط فرح فلا أجد. وقال أيضًا صالح جودت: افتحي نافذة في قصائدك لتتنفسي منها. وقال أحمد رامي: كل الكلمات مكسوة بحزن دفين لست أدري السبب.

سجلت في أوراق مبعثرة: أنا أعرف السبب، أنا خائفة طوال الوقت، ويخيل إليَّ أني أتنفس خوفًا، أخاف على أولادي، أخاف المرض، أخاف زوال النعمة، أخاف الخطأ على الهواء، لا أدري متى أتخلص من هذا الخوف الذي يلازمني كظلي.

إن من يسمع صوت الإنسان ويرى جبروته لا يتخيل كم من

الأحزان يعيشها ولا يفصح عنها، الإنسان الخائف مثلي يخفي عن الآخرين علامات الخوف، ويظهر أمام الناس على النقيض «إن الإنسان في حقيقته ضعيف مهما تجبر!».

بعد مرور سنوات على حفل أم كلثوم والنكسة، نحن الآن في حرب مع إسرائيل. سأسافر إلى ليبيا لتغطية إعلامية ضمن بعثة التلفزيون العربي..

ودعت عائلتي وقلبي ممزَّق من الخوف والشعور برهبة لا أعلم مصدرها.. طبعت قبلة على جبين ابنتي رضوى وأوصيتها بأخواتها.

سافرت إلى ليبيا للأهمية.. وطني العزيز، لا لن أعز أبدًا عنك نفسي، أنا وروحي فداك..

من هنا قررت أن أكتب

٢١ فبراير ١٩٧٣ أنهيت أوراقي بالمطار، كان بحوزتي أوراق وميكروفيلم لتسليمهما لبلدي الحبيب مصر، شعرت بقلق ربما لإحساسي أنني مراقبة، جعلني سلمت الأوراق والميكروفيلم لشخص مؤتمن لتوصيلهما مصر. ثم استقللتُ طائرة ليبية للحدود المصرية، شعرت بأن الموت يلاحقني فكان كابتن الطائرة الفرنسي يعلن عن هجوم جوي من طائرتين إسرائيليتين يتبعاننا..

صوت انفجار واصطدام قوي، استيقظت مفزوعة، قلبي يدق بشدة من شدة الخوف.

لماذا تنتهي بنا الحياة عند هذا المنعطف؟

لماذا لا تمنحنا الحياة حق الاختيار في شكل الموت؟

لا أود أن أرى نهاية مثل تلك.

انفجار الطائرة هو أمر مؤسف.

أمسكت الورق والقلم لأدون ما رأيت ليعرف الجميع من هي البطلة سلوى حجازي التي ضحت بحياتها.

الآن، ماذا أفعل بهذا الوقت؟ الثانية صباحًا، سأنهض لأتناول كوب حليب ليهدِّئ من روعي.

الليل الطويل والأحلام هما حياة لا مفر منها؛ فكل شيء هنا غريب.

الأيام مملة.

الأحلام التي تعج بالكثير من الأحداث والمفارقات جعلتني أشبه المسلسلات الدرامية منفصلة الأحداث.. كل يوم أشاهد البطلة ذاتها في ثوب جديد وشخصية جديدة.

أتمنى أن أعود لحياتي قريبًا.

ما زلت أسمع دقات قلبي بجانبي، لا أعلم لماذا؟ أشعر ببعض الوخز بيدي أيضًا.. والتنميل بذراعي.

كنت أدون كل ما أراه، وأحببت بعض الشخصيات ووقعت في غرامهن.. وتمنيت لو أنني حظيت ببعض من نجاحهن وتضحيتهن

والتفكير الإيجابي الذي غير من حياة المرأة تمامًا على أياديهن.

اليوم أشعر بحرارة الجو، دافئ بعض الشيء رغم انعزالي عن العالم الخارجي.

أشعر بالحرارة حول جسدي. أشعر أيضًا أنني أصبحت نحيفة بعض الشيء. رغم أنني لا أمارس رياضة ما والحركة قليلة جدًّا، لكن ماذا إذا أردت منهم أي شيء! أعلم أنني مراقبة، وهذا يريحني نوعًا ما، فإن مرضت وحدث لي أي انتكاسة سأجد من يعتني بي.

أشعر برائحته؛ المرض، يحيط بي من كل اتجاه، بل أشعر بالفعل أني مريضة، لا أعلم لِمَ ينتابني هذا الشعور وأنا أتمتع بصحة جيدة، الليل البهيم رغم حرماني من الليل وضوء القمر ونجوم السماء والهواء ونسماته العليلة التي تمر على جبيني لتجفف قطرات العرق.

أعود لأحلامي، اليوم سأدافع عن قضية تشغل الكثيرات من السيدات اللاتي يعملن لكسب لقمة العيش بكرامة، تبنيت قضية في غاية الأهمية؛ حيث تترك المعلمة وظيفتها عند الزواج، لماذا تترك المرأة العمل عند الزواج؟ أليست هذه تفرقة وعدم مساواة، أعتقد أنه تنمر آخَر ضد المرأة، رأيت بالحلم النساء المعلمات يتركن عملهن عند الزواج.

السؤال يطرح نفسه، لماذا أتعامل كامرأةٍ هذه المعاملةَ؟

لماذا تحرم المرأة من حياتها العملية والمهنية عند الزواج؟ وكأن

نهاية العالم أتت لها وحدها، تأمرها بالبقاء بالمنزل لممارسة أعمالها الأنثوية المكلفة بها، هل يخاف الرجل منها أم عليها؟

= الإجابة: أحيانًا يخاف عليها، وأحيانًا أخرى منها.

وجدت امرأة تبكي على باب إحدى المدارس، وكعادتي لم أجرؤ على إكمال طريقي دون أن أتوقف وأسألها عن السبب، شرحت لي مدى حزنها لترك وظيفتها رَفْتًا لأنها ستتزوج، وأن مرتبها كانت تساعد به أمها المريضة التي لا يعتني بها أحد، وهي ستتزوج وتخجل أن تطلب من زوجها الإنفاق على والدتها المريضة، والمرتب كان سيعينها بدون خجل.

سمعت منها الكلام وقلبي ينزف ألمًا، وسألت نفسي: "ما فائدة أن أعيش دون قضية أتبناها لبنات جيلي؟".

تقدمت - لكوني محامية - لتبني الحملة أمام وزارة المعارف، ونشرت مقالي بمجلتي مجلة الأمل بالنسختين العربية والفرنسية باسمي منيرة ثابت، التي أصدرتها عام ١٩٢٥، ونجحت الحملة ووافقت وزارة المعارف بمنح هذا الحق للمعلمات وممارسة عملهن بعد الزواج.

الحياة بدون هدف لا تعاش، وبدون أمل لا تطاق.

حسنًا، أملي الآن أن أستيقظ لأجد نفسي بين أولادي وزوجي.. أفتقدهم بشدة. قلبي يدق بعنف لا أعلم ما هذا الشعور. هل أنا مستيقظة أم أحلم؟

الطريق ضيق جدًّا وأنا أمر من خلاله، يكاد يتسع قليلًا كلما تقدمت، أضواء بعيدة وأخرى قريبة خافتة لا تكاد تبعث الضوء بين أركان النفق، ألهث من شدة الإعياء.

ينادَى اسمي باللكنة الفرنسية: ثريا الشاوي، خرجت من المعتقل وجدرانه الرطبة التي لا تدفئ.

طفلة صغيرة لا يتعدى عمرها سبع سنوات معتقلة في سجون الاحتلال.. هل يعقل أن تكون طفلة وتعتقل؟

كنت أحرض الأطفال على مقاطعة الدراسة احتجاجًا على العنف الذي وقع بالمغرب عام ١٩٤٤.

أردت أن أعيش بسلام أنا وأسرتي وكل الأطفال، وأن نتخلص من الاستعمار الفرنسي، ألا يحق للعرب أن يتمتعوا بأوطانهم؟

لم أر سوى الاحتلال على أوطاننا العربية لنهب ثرواتنا وفرض النفوذ والسيطرة، ناضلت حتى آخر قطرة دم في جسدي. وأنا أرى القناصة الفرنسيين يصوبون رصاصات الغدر نحوي.

اليوم سأحاول أن أظل مستيقظة طوال الليل حتى أغير روتين حياتي، أخذت حمامًا دافئًا وارتديت ملابسي بعد ملاحظة اختفاء تواريخ عدة من على جسدي، أتلهف لأرى بقية التواريخ ممحاة وينتهي هذا كله.

الديار هي حلم المغترب وراحة المتعب؛ فلا تعُدْ لها منكسرًا،

فهناك من ينتظرك ليكمل سعادته بك.

اكتملت سعادتي عندما عدت من فرنسا حاصلة على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السوربون مع زوجي.

رجعت بلدي وكلي حماس، اشتركت في مسابقة جمال مصر رغم أن المسلمات لم يَكُنَّ يشاركن وقتها، إلا أنني أحببت أن أثبت ذاتي في المجالين الفكري والأنثوي، وحصلت على المركز الثاني كوصيفة. وجهت لي الصحف المصرية وقتها انتقادًا كوني تصرفت على غير دين الإسلام. بعدها بفترة أخذت أفكر في أن أجعل للمرأة المصرية حق الانتخاب وإبداء الرأي وأن تكون برلمانية، وواجهت الكثير من الرفض ولكن أمام ثورة السيدات المصريات؛ قلت قولي الشهير: "نحن نصف الأمة.. نصف القوة.. نصف الحياة.. ولقد بلغنا من الوعي القومي ما يجعلنا نعتبر إقصاءنا عن الاشتراك في السلطات الثلاث حرمانًا لبلادنا من نصف طاقتها الحيوية الإنتاجية".

كانت الثورة التي قمنا بها أنا وألف وخمسمائة سيدة أمام أبواب البرلمان المصري الذي لا يوجد مقعد واحد لسيدة بداخله، حينها حاول أحدهم إيقافنا، قلت له: (نحن هنا بقوة حقنا).

ثم نظمت حركة بنات النيل، بعد تعرضي للتعسف من الرئيس جمال عبد الناصر. تلك الحركة - بنات النيل - وضعت فيها كل ما أحلم به تجاه المرأة المصرية؛ أقمنا فصول محو الأمية، ومنح المرأة حقوقها.

كنت صامدة وعنيدة، وتحدثت عني الباحثة الأمريكية سبنثيا نلسون في كتاب سمي امرأة مختلفة.

كان زملائي في باريس يطلقون عليَّ لقب أبي الهول لأنني كنت أفضل الوحدة، وأيضًا إحدى قصائدي خاطبت فيها أبا الهول:

كم تأملت في مرآة ضميري
فسمعت صوتك يقول:
أنت وحدك تعرفين
أنت وحدك تستطيعين
أنت وحدك ترغبين
أنت وحدك تجرُئين..

بعدما أفنيت مالي وصحتي ووقتي في خدمة قضية المرأة، من شرفة شقتي بالدور السادس، اليوم ٢٠ سبتمبر ١٩٧٥ قررت الانتحار.. أودع هذا العالم القبيح المنافق؛ فقد اكتفيت من نفاق وصراع..

إمضاء درية شفيق.

حقًّا أنا في ذهول من أمر تلك السيدات اللاتي يلقين بأنفسهن

من شرفات منازلهن، وكلهن إحباط.

أمسكت القلم لأدون أحلامي التي امتلأت نساءً لا يعلم العالم شيئًا عن تضحياتهن من أجل الوطن، أكاد أجزم أن الفتيات اللاتي يعاصرن هذا الوقت لا يعلمن شيئًا عن واحدة ممن وضعت رواسخ الحياة التي تحيا بها الآن، وأن تلك الصلاحيات والمزايا والحريات كلها التي تنعم بها هي نتاج تلك الشخصيات النسائية الفدائية، ولولاهن ما كانت الفتيات والسيدات على هذا الحال. ورغم ذلك لم تنل واحدة حقها ممن تركن بصمة تشهد لها في دفاعها عن المرأة وحريتها وقضيتها وحقوقها.. لذا قررت أن أكتب وأكتب وأضع كل هذا بكتاب يضم الأسماء التي خلدها التاريخ؛ لكن بلا ضوء، معتم لا يمكن النظر إليه ورؤيته بوضوح.. لكني سأضع تلك السطور وألقي الضوء عليها؛ علني سددت جزءًا من دَيننا نحوهن. أدعو كل نساء بلدي وفتياته لقراءة هذا الكتاب لمعرفة تاريخ سيدات مناضلات تستحق كل منهن تكريمًا خاصًا وحديثًا لا ينتهي عن إنجازاتها.

أعيش الآن وكلي شغف لتلك الأحلام التي جعلتني بطلة مرارًا وتكرارًا، وضعتني بشعور لا يوصف. أحببت تلك المغامرات وتلك الأزمان التي عبرتها ورأيت حال الناس فيها، كيف عاشوا وعانوا من أشياء لا تحتمل. كانت أحلامي تزعجني كثيرًا، إلا حُلمًا واحدًا، شعرت فيه بأحاسيس جميلة جعلتني أود أن يصبح واقعًا. تلك الشخصية التي حلمت بها تقول:

ولدت بلبنان، وبعد الشهادة الثانوية انتقلنا إلى مصر، تعلمت وأتقنت أكثر من لغة.

القدوم إلى القاهرة؛ فيها تلقيت تعليمي الجامعي في كلية الآداب، فأتقنت اللغتين الإنجليزية والفرنسية، كما أجدْتُ الألمانية والإيطالية والإسبانية واللاتينية واليونانية والسريانية، لكن معرفتي بالفرنسية كانت عميقة للغاية، ولي عدة أشعار مكتوبة بالفرنسية، كما عكفت على إتقان اللغة العربية لتجويد التعبير بها بعدما كنت عاجزة عنها، ولي دراسات في الأدب العربي والتاريخ الإسلامي والفلسفة في جامعة القاهرة.

أما أكثر الأشياء مفارقة في حياتي فكانت صالوني الأدبي؛ صالون الآنسة «مي» كل ثلاثاء، اعتاد على حضوره كبار الأعيان والساسة والمثقفون، أمثال: محمد عبده، وقاسم أمين، وطه حسين، وإسماعيل صبري، ومصطفى صادق الرافعي؛ مما جعل لي مكانًا مختلفًا وروحًا يهيم بها أكثر الأدباء عشقًا.

كنت أحب القاهرة وأحب العيش بها.

كنت أبادل الشعراء الرسائل، أمثال: جبران خليل جبران الشاعر اللبناني الذي هاجر إلى أمريكا مع أسرته هربًا من الفقر. وأيضًا مصطفى صادق الرافعي. لا أنكر ميولي نحو جبران، ولكن هناك الكثير من المخاوف التي قابلتني وحيرت خاطري بين القبول والرفض، وزعزت ثقتي في جبران، كان هناك جانب لا أعلم عنه أي

شيء.

رسائل جبران لي والتي جعلتني أكثر شغفًا به. مثل..

"تقولين إنك تخافين الحب! لماذا تخافينه؟ أتخافين نور الشمس؟ أتخافين مدّ البحر؟ أتخافين طلوع الفجر؟ أتخافين مجيء الربيع؟ لماذا يا تُرى تخافين الحب؟ لا تخافي الحب يا رفيقة قلبي، علينا أن نستسلم إليه رغم ما فيه من الألم والحنين والوحشة، ورغم ما فيه من الالتباس والحيرة".

كنت أخاف من غيرتي تجاهه؛ فلست رقمًا في حديقة نسائه.. وقع الكثير من الأدباء في حبي ولكني كنت أقرب شغفًا وحبًّا لجبران، سحرني بلغته وسحره، كان يريدني قريبة منه بينما هو فيّ جزء مني لكني رفضت أن أكون مجرد رقم في حديقة نسائه.. لو قادني القدر نحو ذراعي جبران كنت طحنته بغيرتي وافترقنا بسرعة بشكل بائس وحزين وحقد لا يُمحى.

نعم أنا سيدة الأقدار الحارقة، ورجل نشأ في الحرية ومات فيها لا يمكنه أن يدرك حرائقي مهما تواضع معي، كان سندي وصديقي وأخي الذي لم تلده أمي وحبيبي الآخر، وموته دمرني.

مؤلفاتي تضم أكثر من عمل.

نشرت العديد من الكتب، تأليفًا وترجمةً، حيث نشرت أول ديوان شعري بالفرنسية تحت اسم «أزاهير الحلم»، وصدر لها بالعربية مجموعة كتب كـ: «باحثة البادية»، و«كلمات وإشارات»،

و«المساواة»، و«ظلمات وأشعة» إلخ. كما ترجمت ثلاث روايات، منها رواية «ابتسامات ودموع» لمكس مولر، بالإضافة إلى ذلك نشرت العديد من المقالات والأبحاث في كبريات الصحف والمجلات الأدبية والفكرية مثل: المقطم، والمحروسة، والزهور، والأهرام، والهلال، والمقتطف.

رغم ما عاصرته من أحداث جميلة لمي زيادة إلا أن النهاية كانت حزينة، دونتها بمذكراتي كالآتي:

عاشت الاثنتي عشرة سنة الأخيرة من حياتها في مأساة حقيقية؛ حيث فقدت ثلاثة من أقرب الأشخاص إليها واحدًا تلو الآخر، هم والدها الذي توفي عام ١٩٢٩م، والحبيب جبران خليل جبران الذي تلاه في عام ١٩٣١م، وأخيرًا والدتها التي فارقت الحياة بعده بعام، هذه المفجعات المتتاليات جعلتها تقضي بعض الوقت في مستشفى للأمراض النفسية، ثم خرجت بعدها وأقامت عند الأديب أمين الريحاني عدة أشهر، عادت بعدها إلى مصر لتموت بالقاهرة في ١٩٤١م، تاركةً وراءها إرثًا أدبيًا رائعًا ومتميزًا.

حسنًا، ما زلت سعيدة بتلك الأحلام، ولكن بعض الأشياء العجيبة التي تحدث لي في وسط أحلامي كأن ألمح ابنتي بجواري تبكي، وأصواتًا من حولي تذكرني بماضٍ لي مع أسرتي، أصوات كثيرة متداخلة لا أعلمها، أضغاث الأحلام تلك أرهقتني، وجعلتني أكثر تشتتًا عما سبق، أشعر أني بدوامة أو إغماء وتعب.

تتوالى الأيام وأنا حبيسة.

حبيسة أوهام وغرفة وأحلام.

أشعر بيد دافئة تحتضن يدي وتربت ببطء عليها. علها أمي تشعر بي فترسل لي رسالة لأطمئن، كم شخصية رأيتها بأحلامي وكتبت عنها، الكثيرات ربما، ولكن القليلات – في نظري - عددهن قليل بالنسبة لأعداد النساء بالقطر العربي. لا يخرج من رحم المعاناة شخص فيغير ملامح العالم بمثابرته ومعاناته.

المعاناة والقسوة تلد رجالًا ونساء لا مثيل لهم في الحياة، لا يتكررون إلا بصفات نادرة لا تأتي كل يوم. في كل بلد عربي وجدت نساء ناضلن وكافحن لأجل قضيتهن. الكثيرات ولكني لم أحظ بشرف التجربة التي مررن بها. فخورة بنساء بلدي ونساء كل العرب، فقد تميزن وتفوقن في نواحٍ عدة؛ السياسية والاجتماعية والفنية والأدبية.

في العراق مثلًا حلمت بشخصية جعلتني أهفو لبلد عريق بلد الحضارة السومرية والخيال ومهد الكثير من ملوك البشر والجان، بلد النمرود والحضارات. بلاد الرافدين.

الدكتورة سلوى عبد الله سالم، تخرجت سنة ١٩٥٦ وتميزت بخدماتها الإنسانية في مجال الطب العام والنسائية والولادة.. إضافة إلى ما تم ذكره، ساهمت العراقية بدور متميز في وثبة كانون سنة ١٩٤٨ لإسقاط معاهدة بور تسموث، كما لا ننسى دور السيدة

عدوية الفلكي عندما تقدمت في التظاهرات حاملة علم العراق، وتعرضت المرأة العراقية آنذاك للاعتقال والسجن والاضطهاد.. المرأة إن أرادت أن تثبت شيئًا أثبتته.

أتذكر مقولة لنابليون بونابرت إذ يقول: "المرأة التي تهز السرير بيمينها، تهز العالم بيسارها"، هذا هو الوصف الحقيقي للمرأة.

أعود إلى غرفتي وحياتي التي لم أعد أعلم هل أعيش الحُلم أم الواقع.

أدون كل ما أراه؛ فلم تخلق الأقلام هباءً، ولم تصنع الأوراق لطبع ونسخ الروايات فقط، هي للتدوين والتسجيل، لحفر تاريخ الأمم حتى لا تضيع ملامحنا وسط الجهل ووسط ركام الأحداث المتتابعة، فالعالم أصبح يسير على عجلات من شدة السرعة، والوقت لم يعد كافيًا لشيء.

بدأت التواريخ المحفورة تختفي من على سطح جسدي، لم أعد أرى إلا القليل منها، حسنًا، إننا نقترب من نهاية أيامي هنا.

رغم حبي للأحداث التي عشتها لكن واقعي ينتظرني، وواقعي هم عائلتي التي اشتقت لها كثيرًا. لن ألوم أحدًا بعد اليوم على أي فعل يقوم به تجاهي؛ فأنا مشتاقة لكل شيء. حتى سخافاتهم وعنادهم وإرهاقي، اشتقت له.

التعليم هو حق لكل فتى وكل فتاة.

كان التعليم الدراسي قديمًا للفتيان فقط، أما الفتيات فمن اهتم بهن والدهن فقط وأحضر لهن مُعلمين بالمنزل.

بداية التحرر بدأت برفع اليشمك عن الوجه، فاليشمك هذا يشبه النقاب في وقتنا الحالي، لم تكن تخرج المرأة من منزلها مكشوفة الوجه، هذا الشيء استمر حتى ثورة ١٩١٩، وأول من رفعته هي صفية زغلول زوجة سعد زغلول التي تزوجها وهي ابنة رئيس وزراء مصر مصطفى النحاس، وكان أصله تركيًا أبًا عن جد. كانت تعيش حياة أرستقراطية، تقدم لها شاب من الغربية يملك المال والأراضي لكنهم اعتبروه فلاحًا.. فتدخل حينها قاسم أمين وحاول مع الطرفين حتى وافقوا على زواجهما.. سأسرد لكم ما رأيته، وكان من أمتع الأحلام التي رأيت.

صباحًا كان يوم زفافي على سعد، دخلت أمي غرفتي كأي أم لتطمئن على ابنتها وتنصحها.

قالت لي أمي: عندما تغادرين مع زوجك إلى بيت الزوجية بالحنطور، إن مد لكِ يده لتنزلي فلا تمدي له يدكِ، وإن فعلتِ ذلك حتمًا سيكررها مرة وأخرى، تدللي ولا تعطيها له من أول مرة.

ففعلت كما أمرتني أمي.

وصلنا إلى بيتنا ووقف الحنطور ونزل سعد ومد يده لي بالفعل، فنظرت إلى الجانب الآخر، وانتظرت أن يمد يده مرة أخرى، ولكن

كانت المفاجأة أن تركني ودخل إلى البيت ولحقت به كالبلهاء أجرجر فستاني.

كانت حياتي مختلفة عن باقي النساء، كان سعد زغلول رجلًا حرًّا يحب بلده. بعد إنهاء دراسته بالحقوق والتحاقه بالعمل النيابي وتدرجه بالمحاكم

في عام ١٨٩٢م عرضت عليه الحكومة وظيفة نائب قاضٍ بمحكمة الاستئناف، كما درس اللّغة الفرنسيّة في نفس العام، والتحق بجامعة باريس عام ١٨٩٦م، وفي نفس العام تزوّجنا.

استمرّ في سلك القضاء لمدّة أربعة عشر عامًا، فارتقى في عمله حتى وصل إلى رتبة المُستشار ١٩١٨م، وتمّ عقد العديد من اللّقاءات للبحث في الشأن المصريّ بعد الحرب العالميّة الأولى، فتأسّس حزب الوفد وضمّ العديد من الشخصيّات، كسعد باشا زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي الشعراويّ، وقاموا بجمع التوقيعات من أصحاب الشّأن، تتضمّن توكيلهم بالإنابة عن المصريّين للسّعي بالطّرق السّلمية إلى تحقيق استقلال مصر. فأثار الموضوع غضب الاحتلال، واعتُقل سعد زغلول ونُفِي إلى جزيرة مالطا في البحر المُتوسّط مع مجموعة من أصدقائه، فعمل غيابه على إحداث الكثير من الاضطرابات، ممّا أدّى إلى قيام ثورة عام ١٩١٩م.

بعد نفي سعد زوجي كنت أشتعل من الغضب والحزن، وانتظرت أن تؤتي الثورة ثمارها ولكن للأسف كانت النتائج مخيبة

للآمال. ولكن الشيء الوحيد المفرح بالأمر هو أن الشعب المصري العظيم لم يتخلَّ عن زعيمه، فواصل انتفاضاته، وهبت الثورة مرة أخرى، وشهدت شوارع المدن والريف هتافات الثوار التي كان أبرزها "سعد سعد يحيا سعد"، وفي ٢٨ فبراير ١٩٢٢ أصدرت إنجلترا تصريحًا أعلنت فيه إنهاء الحماية البريطانية على مصر وإعلانها دولة مستقلة، ثم صدر أول دستور مصري عام ١٩٢٣، الذي نص على أن الأمة مصدر السلطات وأفرج الاحتلال عن زعيم الأمة.

لم أكن بمعزل عن انتفاضات الشارع ومطالب ثورة ١٩١٩ فشهدت شوارع مصر حضوري ومشاركتي ومناداتي باستقلال الوطن بيتي الكبير الذي إن لم يتحرر من قبضة الاحتلال فسيضيع بيتي الصغير الذي يأويني أنا وأسرتي، فكانت نظرة النساء للمستقبل. فخرجن إلى الشارع متظاهرات حتى إن الفترات التي غاب فيها سعد زغلول عن الشارع قدت الحركة السياسية مع رفيقتي هدى شعراوي.

خرجت نساء العائلات لتواجه المعتدي والاحتلال، وللمشاركة السياسية.

بداية القصة أنني صفية قد رفضت طلبًا من الإنجليز بأن أترك مصر وأخرج إلى زوجي في المنفى. أدركت وقتها بحسي الوطني أن الوطن في حاجة إليَّ أكثر من زوجي، وأن رقة قلب الإنجليز ليست إلا حيلة لإبعادي عن مصر، وكنت قد اندمجت في الحركة الوطنية وقدت المظاهرات النسائية وراعيت مصالح الثوار.

أتذكر كلمات سيد درويش التي ألهبت الحماس في صدور الثوار..

قوم يا مصري مصر دايمًا بتناديك
خد بنصري، نصري دين واجب عليك
يوم ما سعدي راح هدر قدام عينيك
عد لي مجدي اللي ضيعته بإيديك
شوف جدودك في قبورهم ليل نهار
من جمودك كل عضمة بتستجار
صون أثارك ياللي دنست الأثار
دول فاتولك مجد وأنت فوت عار.

وبعد عودة زوجي سعد زغلول من المنفى وكان قد عاد بحرًا، في ميناء الإسكندرية استقبله الآلاف في المراكب الصغيرة وعلى الشاطئ، وكنت في مقدمة المستقبلين، ووقفت إلى جواره وبينما كانت الجماهير تهتف له قال سعد زغلول لي:

(ارفعي اليشمك يا صفية)

كانت صدمة لي في بداية الأمر لكن فعلتها رغم معارضة البعض.

فقال له عضوان من الوفد: إنه ليس من اللائق رفع اليشمك يومها

فقال سعد: إن المرأة خرجت إلى الثورة بالبرقع ومن حقها أن ترفع الحجاب اليوم.

قال سعد: ارفعي اليشمك يا صفية.

أتوقف هنا لأتذكر موقف كلٍّ من هدى شعراوي وسيزا نبراوي حين رفعتا اليشمك أو النقاب وصعدتا إلى الباخرة لاستقبال سعد زغلول، وكانتا تنتظران ردة فعل الناس، لكن لم يلحظ أحد لانشغالهم بسعد.

مما شجع نور الهدى محمد سلطان مكونة الاتحاد النسائي المصري، والتي اشتهرت باسم: هدى شعراوي على نزع النقاب، وذلك عند استقباله في الإسكندرية بعد عودته من المنفى. واتبعتها النساء فنزعن النقاب بعد ذلك.

إن ممن عارضوا رفع اليشمك كان القبطي واصف باشا غالي ابن رئيس الوزراء بطرس غالي، وقال إن رفع اليشمك قد يكون غير لائق.

قبطيٌّ يرفض رفع اليشمك؟!

كان اليشمك عادة متوارثة لا تنتمي لدين أو طائفة.

الآن سمي نقابًا وأصبح ينتمي للدين الإسلامي.

الحرية التي حلم بها نساء الوطن العربي كانت ولا تزال حلم كل فتاة، أتذكر طفولتي عندما كان أبي يوجهني لما أفعل وما لا أفعل، أن

الذكر غير الأنثى، ولكل منهما مهام في الحياة، ولا يجب أن يتعداها طرف آخر. كنت أحسد أخي على خروجه بكل سهولة بينما أنا بحساب.

لا أنكر أننا تخطينا الكثير في تلك الشئون، واجتزنا المسافات ووصلنا للحد الذي أصبحت فيه المرأة مثلها مثل الرجل في نواحٍ عِدة.

الغريب بالأمر أنني أتذكر كل حياتي بتفاصيلها الدقيقة، منزلي الواسع المشمس، ورودي التي زرعتها، قطتي المسكينة يا ترى من يطعمك؟ لا بد أن ابنتي تفعل؛ فهي تحبها مثلي تمامًا. يومًا ما أحضر زوجي قفص عصافير لابنتي، لم أحب أن يحبس عصفور في قفص وأن يُسْلَبَ طبيعته التي خلق عليها. ربما حوض سمك يفي بالغرض، عند اقتناء حيوان، من أبسط حقوقه هو وضعه ببيئته التي يتكيف بها. لا أحرمه من طبيعته التي خلق عليها.

التعليم حق لكل فتى وفتاة، وطوبى لمن علمني حرفًا.

إن تحدثنا عن التعليم في مصر سأتذكر تلك السيدة العظيمة ودورها القوي في تعليم فتيات مصر.

ما رأيته من حُلم جعلني أفتخر بها وبعملها، سأسرد عليكم هنا الحُلم الذي رأيته؛ لتعلم كل امرأة أخذت حقها من التعليم واليوم تشغل منصبًا كبيرًا أنه لولا تلك النساء لكنتِ اليوم واحدة من الكثيرات اللاتي لا يفعلن إلا الإنجاب والتربية، ولا أقلل من هذا

العمل الجليل للمرأة التي خصها به الله، بل هو من أجمل ما وُكِل به الإنسان، ولهو شرف لنا نحن النساء.

حسنًا؛ فتاة صغيرة ولدت يتيمة الأب، لم تره، كان ضابطًا بالجيش المصري، سافر إلى السودان ولم يعد، أمها رفضت تعليمها للتحفظ، لكن محمدًا أخاها ساعدها في التعلم.

والتحقت نبوية موسى بالقسم الخارجي للمدرسة السنية، وحصلت على الشهادة الابتدائية، ثم التحقت بقسم المعلمات السنية، وأتمت دراستها. سمعت؟ تقدمت نبوية موسى للحصول على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) في أول سابقة من نوعها، ونجحت في الامتحان، وحصلت على الشهادة سنة (١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م)، وكان لهذا النجاح ضجة كبرى، ونالت نبوية موسى بسببه شهرة واسعة.

وفي هذه الفترة بدأت نبوية تكتب المقالات الصحفية.

ومن بعض الأحداث التي عشتها وتأثرت بها هي توقيفي بإعطائي إجازة مفتوحة بسبب عدة مقالات كتبتها، اعتبرني الإنجليز وقتها أعمل بالسياسة، المستشار باترسون لوزارة المعارف.

ومن ضمن الأشياء التي تنسب لها هي المدرسة التي تولت نظارتها بالفيوم، وكانت سببًا لحب الفتيات للتعليم، وقتها تركت نبوية موسى الخدمة في وزارة المعارف،

تعتبر الفترة فيما بين (١٣٥٦- ١٣٦٢هـ/ ١٩٣٧- ١٩٤٣م) هي

أزهى فترات نبوية موسى وأكثرها نشاطًا وحيوية، فإلى جانب إدارتها للمدارس التي اكتسبت سمعة طيبة قامت بإنشاء مطبعة ومجلة أسبوعية نسائية باسم الفتاة، صدر العدد الأول منها في سنة (١٩٣٧م).

من مؤلفاتها.. حياتي بقلمي.

المرأة والعمل.

كانت أحلامي لنبوية موسى متتالية لأكثر من حُلم، رأيت بعض كلماتها. أتذكر أنني أدون بعض كلماتها التي حُفرت بالذاكرة، مثل؛ الاهتمام بشأن المرأة دخل عظيم في تقدم الأمة؛ ولنرَ أننا - نحن المصريات- مقصرات فيما يجب علينا في ترقية شأننا. دعوتها هنا حقيقية لنهوض المرأة من سبات عميق، فلو عرف كل أب وأم ماذا يحدث عندما يتم تهيئة الفتاة منذ الصغر بالشكل الذي يفيد المجتمع وليس بيتها فقط، لكنا من أفضل الأمم، فالمرأة نصف المجتمع، وأن أنجبت الجزء الثاني وشملته برعايتها وتربيته تربية سليمة صحيحة لكنا في الصفوف الأولى.

كل ما كان يسعدني ويؤلمني بذات الوقت؛ هو رؤيتي للفتيات الصغيرات اللاتي لم يحالفهن الحظ لتلقي التعليم. فأنا أومن كما آمنت نبوية موسى بحق كل فتاة في التعليم، لا أحب أن تُحصر الفتاة في تعلم التدبير المنزلي فقط، فالعلم أساس العقل.

ونضج العقل يصل بالتعلم والمعرفة وملء العقول وليس ملء

البطون.

أتذكر والدي، كان إنسانًا بسيطًا لم يُكمل تعليمه الجامعي لضيق الحالة المادية، ولأن شهادة الثانوية آنذاك كانت كافية للتعيين من قبل الحكومة. لكنه لم يقصر يومًا في تعليمي أنا وإخوتي.

نعود لنفس النقطة أن الأب هو سند الفتاة وهو جدار الحماية والسلم لصعود المجد.

سأتوقف عن الكتابة قليلًا وأعود لحياتي وبيتي وزوجي وأتذكر أيام الجامعة عندما تقابلنا لأول مرة وملامح الانبهار التي كست وجهه، أثناء المحاضرة عندما سبقته وأخذت الكرسي بدلًا منه وجلست ونظرت إليه بابتسامة النصر.

لم يتحدث بكلمة واحدة ولكنة سرعان ما رد لي الصفعة سريعًا، ذهبت لأحضر أوراق تلخيص لمادة ما يقوم بها بعض الطلبة كما هو متعارف بالجامعات، وكان يقف هناك بانتظار نسخته وطلبت واحدة، فرد عليَّ البائع إنها الأخيرة، ومن الممكن تصويرها لي إن وافق هو، حينها أخذ الورق ونظر إليّ نفس نظرة النصر وابتسامة تعلو وجهه، وذهب دون أن يعيرني أي اهتمام. كدت وقتها أن أموت غيظًا.

لكن بعد يومين، جاء وقدم لي نسخة مصورة وقال: كنت أمزح فقط، تفضلي.

تعارفنا وصرنا أصدقاء. وما زلنا أصدقاء حتى يومنا هذا. لو يعلم

الرجل أن المرأة تحتاج لصديق وليس لزوج لكان كل شريك حياة سعيدًا؛ لأن الصداقة تدوم وتجعل الحياة أبسط بدلًا من علاقة تقوم على أساس شخص يحكم وآخر ينفذ.

أتذكر أن زوجي كان من أوفى الأصدقاء للجميع.

الحنين يأخذني كثيرًا لابنتي، وقطتي، ومنزلي، لزهور الريحان والنعناع، ولشمس الصباح المشرقة التي تدفئ قلبي.

لدي صديقة واحدة، لكنها أجمل ما حظيت به في حياتي. كانت صديقة فصل واحد من مرحلة الابتدائي إلى الجامعة، لم أنفصل عنها إلا قليلًا. عندما انتقلنا أنا ووالدي للسكن بشقة أكبر، بعد وفاة والدتي، كان أبي يخاف جدًّا علينا أنا وإخواتي، فانتقلنا بجانب الجامعة، حتى لا نضيع الكثير من الوقت، خاصة وأن شغل البيت قسم علينا، صنعت الكثير من الأكلات الفاشلة، إلى أن تعلمت مع الوقت، ولكن أبي لم يكن ليجعلني أترك الدراسة لأتفرغ للبيت، وما كنت أفشل في عمله كان يقوم به والدي.

أتذكر قوله: لن أسمح لأحد أو لشيء ما أن يعطلك عن دراستك، أنا هنا لسبب واحد هو نجاحك.

بالفعل نجحت وتخرجت في كلية الإعلام قسم الصحافة، وعملت بالصحافة والكتابة، ولم أمل يومًا من عملي أو بيتي، أحب الكتابة كعشقي لشمس الصباح، كيف للعالم أن يصحو من غفلته إن لم تشرق الشمس؟

وهذا ما سهل عليَّ تدوين وتسجيل الأحداث هنا.

العمل عبادة.

بدأت التواريخ في الاختفاء عن جسدي، أشعر براحة نفسية لذلك، حياتنا كلها تواريخ، تاريخ ميلاد، تاريخ وفاة، تاربخ أمم، التاريخ هو ببساطة شديدة حياتنا.

إلى الآن لم أر أحدًا هنا، وما زالت الأطعمة تأتي والقمامة تذهب، وما زالت الأحلام تتوالى.

تمددت على السرير ونظري مثبت على محبس الزواج، كان خاتمًا واحدًا بفص ألماس، لم أكن من هواة الحُلي، يكفيني شيء واحد فقط أحتفظ به.

يوم زفافي كان أسطوريًّا، فستاني صمم من الحرير الأبيض الفرنسي الثمين المرصع بأغلى أنواع اللؤلؤ والماس، وطول ذيله ١٥ مترًا، تزوجت الأمير طوسون بن سعيد باشا حيث ارتديت تاجًا من الماس ثمنه ٤٠٠٠٠ وأنجبت منه الأمير جميل والأميرة عصمت. ثم تزوجت من الأمير محمود سري باشا بعد وفاة زوجي الأول عام ١٨٧٦ وقد أنجبت منه ثلاثة أولاد وبنتًا. ذاعت شهرة امتلاكي كثيرًا من الحلي الرائعة. ليس المهم ما أمتلكه، ولكن بما سأفعله.

سمعت من الطلاب العائدين من بعثات التعليم بالخارج أن الجامعات هناك لا يمكن وصفها من جمالها، وطالبوا ببناء جامعة مثل الجامعات الأوربية، تحمس الكثيرون لذلك، وبدأ بالفعل جمع الأموال والتبرعات. مع الوقت تعثروا ماديًّا بادئ الأمر تم عمل اكتتاب شعبي لجمع التبرعات من أفراد الشعب المصري، بدءًا بالأثرياء والوجهاء وانتهاءً بتلاميذ المدارس إلى جانب بعض الدعم المقدم من خديو مصر عباس الثاني، وبالفعل تم استئجار مبنى مؤقت، ولما عجزوا عن سداد إيجاره تم استبداله بمبنى آخر كمقر مؤقت للجامعة، وظل المشروع يعاني من مصاعب مالية لما يفوق عشر سنوات،

علمت بأمر الجامعة والمشاكل المادية التي تواجهها، من خلال طبيبي. ولما كنت من محبي فعل الخير ومن المهتمين بالعلم والمعرفة، سارعت إلى وقف ٦ فدادين من أراضي أملكها لبناء مقر الجامعة، إضافة إلى المجوهرات الباهظة التي تم بيعها في الخارج

من أجل إتمام بناء المشروع بمبلغ قُدِّرَ آنذاك بحوالي ٧٠٠٠٠ جنيه مصري. حتى حفل الافتتاح ووضع حجر الأساس، تحملت نفقاته بالكامل، أحببت مصر فأعطيت دون مقابل. ليت جميع الأمراء يشبهونك أيتها الأميرة فاطمة، رحمة الله عليكِ، ما أجملك! جامعة القاهرة من أعرق جامعات مصر، بنيت بأموال الأميرة فاطمة، تلك هي التضحيات. بعض الأسماء خلقت لتُخلد. أحببت فاطمة؛ فهي نبراس للعلم وتاج على رءوس المصريين ندين لها بالكثير.

دونت الكثير من الأحداث والنساء ولم أنتبه لشيء ما، أن نهاية البعض كانت مأساوية، هل هذا ضريبة التمرد على المجتمع الذكوري؟

لا أعلم؛ فالمرأة حين تتمرد لا تجد إلا القمع من والديها أولًا ثم الزوج وبالأخير المجتمع.

لم يقمعني والدي يومًا. وهذا سر من أسرار نجاحي. فاعلَمي أن من يقمع طموحك هو من لا يحب أن تتفوقي عليه. تعلقي بأحلامك كتعلق قلبك بأنفاسك. إن حبستِها مات القلب، وإن تخليت عن أحلامك توقفت الحياة. تنفسي كي تعيشي حياة كريمة.

تلك الأحلام غيرت فيَّ الكثير، جعلتني أشعر بأن الحياة لا تستمر دون مقاومة ودون تغيير مستمر، فلنُطِلِ النظر لتلك الحقبة الزمنية ما بين ١٨٠٠ و١٩٩٩ أي قبل الألفية الثانية. ما مرت به البلاد العربية من أحداث وتغيرات سياسية وجغرافية.

يقال إن التاريخ يعيد نفسه، لا أعلم كيف وهناك أشياء حدثت من حروب واعتقالات وتعذيب واستعباد لقوى البشر لا مثيل لها. أعتقد أننا نعيش في عصر الحرية المزيفة، قد تتمتع بحريتك بينك وبين ذاتك، في أحلامك. تلك الحرية التي يبحث عنها الكثيرون، والتي تزعم دول الغرب أنها تتمتع بها، هي حرية مشروطة. لن أطيل في الحديث عن الحرية. أشعر بالدوار وأود أن أنام.

كنت أحتضن صغيرتي عند النوم، وأشعر بأنفاسها التي تطمئنني. تتجاذب معي أطراف الحديث..

- ماما، لماذا السماء بها نجوم؟

- صغيرتي، إنها كواكب تسبح في الفلك.

- ولماذا لا تظهر بالصباح؟

- حبيبتي، إنها تستمد أشعتها من الشمس، ولأنها لا تملك إضاءة كبيرة فإنها تشع ضوءًا بالليل.

- أتمنى أن أمتلك تليسكوبًا فلكيًّا لأرى كل هذا عن قرب.

- حسنًا صغيرتي، نامي الآن، وغدًا نفكر في أمر التليسكوب.

- تُصبحين على خير.

- وأنتِ من أهل الخير أمي.

اشتقت لها ولأحاديثها الأخاذة، واشتقت لابني أيضًا.

بعد الزواج تغيرت الحياة بالنسبة لي. عرفت معنى المسئولية التي يتحملها الأب والأم، عرفت معنى الخوف على أولادي، وعذرت أمي وأبي حين كانا يقسوان علينا لمصلحتنا، عرفت معنى الحب بشكل مختلف، فالحب ليس الحب الرومانسي ما بين رجل وامرأة، لكن الحب المختلط بالتضحيات هو أسمى أنواع الحب، الذي يقدم دون مقابل.

هنا حيث الهدوء والوحدة وراحة البال كما أحب أن أعيش، إلا أن صخب الحياة نحتاج له أيضًا.

عشت تجارب نسائية فخورة بها جدًّا. تاريخ المرأة له دور كبير وفعال. وإن بحثنا قبل ذلك وجدنا نماذج كثيرة لا بأس بها أيضًا، من التاريخ الفرعوني أتذكر؛ كليوباترا، وحتشبسوت، وإيزيس وغيرهم.

أتذكر شخصية قرأت عنها يومًا ما.

أثناء انتشار الدين المسيحي ظهر العديد من النساء، ومن أشهرهن الفيلسوفة هيباتيا.

هيباتيا هي ابنة ثيون آخر زملاء سيزاريوم الإسكندرية الذي كان إما ملاصقًا لمكتبة الإسكندرية أو بداخلها، والذي كان معلمها وآخر علماء الرياضيات المعروفين، والمنتمين إلى مدرسة الإسكندرية. وقد سافرت إلى أثينا وإيطاليا للدراسة قبل أن تكون عميدة للمدرسة الأفلاطونية نحو عام ٤٠٠ ميلادية. وقد عرفت هيباتيا بدفاعها عن الفلسفة والتساؤل، ومعارضتها للإيمان المجرد.

تحدث المؤرخ الكنسي سقراط عن هيباتيا في كتابه "تاريخ الكنيسة"، قائلًا:

"كانت هناك امرأة في الإسكندرية تدعى هيباتيا، وهي ابنة الفيلسوف ثيون.

كانت بارعة في تحصيل كل العلوم المعاصرة، مما جعلها تتفوق على كل الفلاسفة المعاصرين لها، حيث كانت تقدم تفسيراتها وشروحاتها الفلسفية، خاصة فلسفة أفلاطون لمريديها الذين قدموا من كل المناطق، بالإضافة إلى تواضعها الشديد لم تكن تهوى الظهور أمام العامة.

رغم ذلك كانت تقف أمام قضاة المدينة وحكامها دون أن تفقد مسلكها المتواضع المهيب الذي كان يميزها عن سواها، والذي أكسبها احترامهم وتقدير الجميع لها".

كانت هابيتا رغم ولعها بالرياضيات أيضًا فيلسوفة، كانت تعيش بالإسكندرية، تعلم على يدها الكثير. ولكنها لم تكن تعتنق ديانة، مما دفع المسيحيين المتشددين إلى رصد حركاتها ومراقبتها.

وكان التفاف جمهور المثقفين حول الفيلسوفة هيباتيا يسبب حرجًا بالغًا للكنيسة المسيحية وراعيها الأسقف كيرلس الأول الذي كان يدرك خطورة هيباتيا على جماعة المسيحيين في المدينة، خاصة وأن أعداد جمهورها كانت تزداد بصورة لافتة للأنظار، بالإضافة إلى أن صداقتها للوالي (أوريستوس) الذي كانت بينه وبين

أسقف الإسكندرية (كيرلس الأول الملقب "عمود الدين") صراع سياسي على النفوذ والسيطرة على المدينة، لقد كان أوريستوس مقربًا إلى هيباتيا ويكن لها تقديرًا كبيرًا. كما قيل إنه كان أحد تلاميذها، وهو ما يفسر استياء البابا كيرلس مستاء من وجود هيباتيا.

كان مقتلها مأساويًّا على يد جموع من المسيحيين الذين تتبعوها عقب رجوعها لبيتها بعد إحدى ندواتها؛ حيث قاموا بجرها من شعرها، ثم قاموا بنزع ملابسها وجرها عارية تمامًا بحبل ملفوف على يدها في شوارع الإسكندرية حتى تسلخ جلدها، ثم إمعانًا في تعذيبها قاموا بسلخ الباقي من جلدها بالأصداف إلى أن صارت جثة هامدة، ثم ألقوها فوق كومة من الأخشاب وأشعلوا بها النيران، وكان ذلك على الأغلب في شهر مارس من عام ٤١٥م.

هيباتيا هي أول عالمة رياضيات في تاريخ البشرية.

وقد قيل عن هيباتيا أنها كانت ذات مظهر جذاب، وأنها أمضت حياتها عزباء بإرادتها. وعند سؤالها عن سبب ولعها بالرياضيات ورفضها للزواج، أجابت بأنها متزوجة بالحقيقة.

إنها نهاية مأساوية لامرأة كل ذنبها أنها تعلمت وفصح لسانها بالعلم والمعرفة والفلسفة.

التاريخ لن يخبرك بعظمة النساء إن لم تكن أنت لمست ذلك.

لم أحلم بها لكني تذكرتها، وأحمد الله على ذلك لكنت تألمت كثيرًا من نهايتها.

تلك ضريبة النجاح للمرأة في المجتمعات الشرقية.

هذا دليل على قوة الفكرة، إن رسخت الفكرة داخل عقل أحد ما اعتنقها مثل الديانة. أتذكر أيضًا شخصية، لكن بعد ظهور الإسلام، امرأة حكمت مصر. تذكرني بنهاية هابيتا.

كانت المدة التي قضتها على عرش البلاد ثمانين يومًا.

شخصية في التراث المصري اسمها شجر الدر، وهي شخصية من شخصيات سيرة الظاهر بيبرس. هذه السيرة الشعبية التي كان يحكيها الحكاواتية في المقاهي في مصر حتى بدايات القرن العشرين، تبين مدى حب المصريين للسلطان الظاهر بيبرس وشجر الدر. وتقول السيرة التي معظمها خيال أن فاطمة (شجر الدر) كانت ابنة خليفة اسمه المقتدر، كان يحكم في بغداد.

ماتت مقتولة بالضرب على رأسها.

لقيت شجر الدر حتفها ضربًا بالقباقيب والنِّعال حتى الموت؛ وذلك بتدبير من زوجة السلطان عز الدين أيبك الأخرى، ويُذكر في سبب قتلها أنَّها قتلت زوجها أيبك عندما علمت بأنّه يريد الزواج عليها، فسارعت بتحريض رجال الخدم على قتله بالحمام، وعندما أدرك ابنه عليّ ذلك أراد الانتقام منها وقتلها، فقبض عليها، وسلّمها إلى والدته التي طلبت من جواريها ضرب شجر الدر حتى الموت. نهاية مأساوية أيضًا. التاريخ ممتلئ بالنهايات الظالمة للنساء، جدير بالذكر أنه عندما قُلدت شجر الدر حكم مصر، لم تنل رضا الجميع،

حتى في عهدنا هذا كل رؤساء الدول رجال، المجد للنساء.

الأم، الأخت، الزوجة، الابنة. عشقت المرايا في غرفتي هنا، كلما حلمت حلمًا، نظرت وتفحصت باقي التواريخ، لأشعر أنني أقترب، سيكون أسعد أيامي حين أعود إلى بيتي وأبنائي.

سمعت الباب يفتح ويغلق سريعًا كعادته، سأذهب لأرى ما هناك، فليس بوقت غداء، أو عشاء، بخطى ثقيلة، تحركت إلى باب المكان، كان ملقى على الأرض هاتف! أمسكت به وفتحت ضوءه من الجانب لأرى ما به، لم يكن هناك شبكة جوال ولا خط تليفون، حسنًا، أعتقد أنه متصل بشبكة إنترنت، ربما سيساعدني كثيرًا في الكتابة. وتخطى الملل هنا.

أمسكت به، لا يوجد إلا مُحرك بحث واحد يعمل، أعترف أن لحظات الضعف اجتاحتني كثيرًا، صرخت ولم يجبني أحد، امتنعت عن الأكل والشرب لعدة ليالٍ، ولم يهتم أحد لأمري، كيف يعيشون بكل هذه القسوة؟! قلوب تحجرت، فمن يربي حيوانًا يعطف عليه، وأنا سجينة لديهم لا يهتمون بأمري، شعرت أحيانًا أخرى أنني أعيش بحلم وليس واقعًا وكأنني بحالة جاثوم، لا يمكن أن أفيق منها، ولا زلت داخل عالم الأحلام، لا أعلم هل أنا بحلم داخل حلم أم أنا بواقع ملموس. الحقيقة أنني أحببت واقعي وأحلامي، أتساءل دومًا، كيف تكون الحياة من دون أحلام، كيف لنا أن نعيش الواقع المعتم دون أحلام تضيء لنا الطريق، ترسم خطوطًا نسير عليها كي لا يسحقنا الواقع بقسوته، أحلام الناس لا تنحصر بتلك الرؤى التي

نراها بنومنا، أتحدث هنا عن أحلامنا الشخصية، أمنياتنا المتعلقة بطموحنا، أحلام الفتيات والشباب،

كم من حلم صار حقيقة!

وكم من حلم وُئِد على قارعة طريق الواقع، فنلملم أحلامنا ونرسم لها دنيا جميلة تحيط بها من كل جانب لرعايتها كطفل صغير ينشأ بعالم وجب عليك رعايته. كان من ضمن أحلامي وأنا صغيرة، دمية.

كانت دمية خشبية ليست كباقي الدُّمى، رأيتها بمسرح العرائس، أخذني أبي معه لحفل صغير لصديقه محرك دمى العرائس الخشبية الماريونت، عشقت الدمى الخشبية، من شدة عشقي لها أوصى أبي صديقه بواحدة لي، وبالفعل امتلكت دمية خشبية رائعة لا زلت أحتفظ بها بصندوق ذكرياتي، مع صور لي بالجامعة، وبعض الحُلي القديمة وخطابات ورقية تحمل عبق الماضي، من صديقاتي وزوجي، فالخطاب الورقي له نكهة خاصة تختلف عن مراسلاتنا حاليًا بالطرق الحديثة عبر وسائل الميديا والإنترنت، أصبح كل شيء سهلًا بلا قيمة.

عِش في الماضي يومًا واحدًا، عش بشعور الانتظار، انتظار خطاب من شخص تحبه، انتظار ساعي البريد، ودقت يديه على جرس العجلة، الذي يترك داخلك فرحة لا تضاهي كل رسائل الميديا، في عصرنا الحالي اختفت اللهفة في انتظار من تحب، حتى

أخباره صارت مباحة، على صفحات التواصل الاجتماعي، الفيس بوك، ولا أنفي أن لها طعمًا آخر، ولكن لا يحمل نفس الشعور بالماضي، فلا تستغرب من يتحدث عن ماضيه وعن أيام الماضي بخيرها وجمالها، فلم تتذوق أنت ما تذوقه أبوك أو جدك.

حسنًا، بيدي الآن إحدى الوسائل الحديثة للتواصل، الهاتف، سأستخدمه لمعرفة معلومات عن كل سيدة حلمت بها، وسأبحث عن المزيد لأضيفه إلى كتابي. سأتناول بعض الفاكهة وسأخلد للنوم بعد يوم طويل.

الثامنة صباحًا، أشعر بضوء خافت من خلف نافذة محكمة الغلق، كجدار أو زجاج عازل لا يمكن فتحه أو كسره، أشعر بدفء الصباح، تمنيت أن أسير بالشارع المتزاحم، وأتناول إفطارًا من على عربة الفول.

ألقي التحية على عم هلال:

- صباح الخير عم هلال، واحد فول وواحد فلافل بسرعة،

عم هلال: ارتاحي يا بنتي وأنا هعمل لك أحلى سندوتشات..

عم هلال حكاية كل شارع، على وجهه أجمل العبارات، تجد التاريخ يتزاحم على رسم ملامحه، أصالة، حب، طيبة، عقل متزن يعلم الكثير ويتكلم القليل، سياسي بارع. هكذا هم الرجال البسطاء في شوارعنا.

أشتاق أيضًا إلى رائحة الدخان المنبعث من عربة البطاطا على الكورنيش، الذرة المشوية، وأشياء كثيرة تلعب بالذاكرة، تقفز على وجه الصباح لتتناولني بشهية نهمة.

لم يتبق على جسدي سوى تاريخين، سأبحث عنهما، لكن ما يجعلني في حيرة أن التاريخين غير كاملين، بمعنى أن كل تاريخ كان محفورًا على جسدي رقمين فقط، مثلًا ٤٨، في هذه الحالة سأجرب تخمين الرقمين الباقيين، وأتمنى أن أنتهي منهما سريعًا.

بالفعل بحثت عن الرقمين الباقيين، ووجدت شخصيات كثيرة، مصرية وعربية، شعرت بحيرة، وبدأت في كتابة إحدى الشخصيات، وانتهيت، وفي اليوم التالي وجدتهما كما هما لم يمح أي رقم من جسدي، وبحثت وكتبت، وكتبت حتى يئست، وأيقنت أن الأحلام فقط هي ما تحدد ذلك، هي التي تقوم بكل شيء، ولا يمكن التكهن بأي شخصية عشوائيًا، هي أشياء مرتبة، سأنتظر، ولا يوجد إلا الانتظار.

النوم أصبح يجافيني، كأنه يتعمد ذلك، أذهب لكي أنام، أجدني غارقة في تفاصيل حياتي، تقفز إلى عيني بعض المشاهد، النوم أصبح قليلًا جدًّا، أود أن أنهي هذا كله، لقد تعبت.

أجواء المستشفيات محبطة للغاية، مريض يعلق بذراعه المحاليل، أقاربه بجانبه، أجهزة قياس النبض، رائحة الدواء والمطهرات التي تملأ المكان، حتى الطعام مختلف المذاق والإعداد،

كل شيء يترك بحلقك غصة.

ربما زيارة المريض واجبة، جزاء الإحسان بالإحسان، رؤية البلاء تجعلك تحمد الله كثيرًا، هذا هو فضل الله عليك، أن تخرج من رؤية غيرك بابتلاء هو الحمد والشكر لله.

رأيت نفسي ملقاة على سرير، وجهاز النبض بجانبي أسمع صوته، ومحاليل بذراعي، وبجانبي تجلس فتاة صغيرة على كرسي تضع رأسها على آخر السرير نائمة، وأرى رجلًا واقفًا على الشباك يعطيني ظهره، لكن لم أكن هناك لزيارة أحد، كنت أنا المريضة، بالكاد أفتح عيني، أرى الأشياء مشوشة، أغمضت عيني مرة أخرى.

انتظرت طويلًا كي أنتهي من تلك التواريخ حتى جاء اليوم الذي حلمت به.

بين جدران السجن أحيا، وسط مجموعة كبيرة من النساء، كان مدير السجن يحب الرسم، وكأي مصلحة حكومية تسير بالرشاوي والمجاملات، كانت علبة سجائر تكفي لحل مشاكلك داخل السجن، من حسن حظي كان مدير السجن محبًّا للفن والرسم، وبطبيعتي كفنانة، كان يعلم أنني أتقن الرسم فيأخذ رأيي في لوحاته، وهنا جاء دور المجاملات، كان يجب أن أفعل، هذا ما أعطاني فرصة لممارسة هوايتي التي أحبها داخل السجن بسهولة، لكنه اشترط عليّ ألا أرسم شيئًا من السجن بداخله إلى أن جاء بزيارتنا شخص غير الكثير في أحكام مأمور السجن.

كنت أريد أن أرسم السجن لولا تحذير مدير السجن لي. وقد حدث ذات مرة أن جاء ضابط كبير منهم لا أتذكر اسمه ليفتش السجن وطلب مقابلتي وسألني عما أرسمه وهل أرسم السجن أم لا، فقلت له إن مدير سجن النساء يمنعني من رسم السجن، فقال له: عندك إنجي أفلاطون... هذه فرصة العمر، دعها ترسم كل شيء بحرية كاملة، هذا أمر، ومن يومها انطلقت بلا قيود أو تردد أرسم وأسجل كل ما أريد داخل السجن.

ومن أهم ما صورت داخل السجن انشراح، وكان محكومًا عليها بالإعدام، وتأجل تنفيذ الحكم عامًا حتى يبلغ طفلها الفطام، وطبعًا المحكوم عليهم بالإعدام يوضعون في زنزانة بحراسة خاصة لكي لا ينتحروا، ويرتدون ملابس حمراء.

وطوال فترة انتظار تنفيذ الإعدام على انشراح كنت أشعر بالمأساة الكبرى وراء قصتها؛ فقد قتلت وسرقت تحت ضغط الظروف القاسية والبؤس الفاحش، ولما طلبت رسمها قال لي المدير حسن الكردي إن هذا شيء كئيب، وفعلًا رسمتها هي وابنها، وكانت هذه الصورة من ضمن الصور التي صادرتها المباحث.

قضايا المرأة هي ابنة صغيرة يتيمة قمت بتبنيها، ومن كلماتي عنها؛ أتذكر كلمتي بباريس..

المؤتمر النسائي العالمي في باريس ١٩٤٥/١١/٢٦

كلمة إنجي أفلاطون

إننا نستطيع الآن أن نتحدث بصراحة عن السياسة الاستعمارية الخبيثة التي تعوق دائمًا وباستمرار كل تقدم وارتقاء في بلادنا.

إن المرأة المصرية ترفض أن تبقى كما هي الآن محرومة من كل حقوقها.

إنها تأبى أن تكون العاملة التي تتلقى ثلث أجر الرجل عن نفس العمل ودون أي تأمين اجتماعي.

إنها تأبى أن تكون الموظفة التي تحرم تولي المناصب الكبيرة بحكم التقاليد

إن نضالنا الوطني مستمر على أشده، وإن الحركة القومية أيقظت في نفوس جماهير النساء ذكرى أعوام بؤس وشقاء، وإنها لمصممة على القيام بدورها في المسيرة العامة للوطن.

من أمتع لحظات حياتي وأثرت في تكويني المدرسة الكبرى التي تعلمت منها حقًا، وأحببتها لأنها مصدر إلهامي، كانت هي بلدتي في الريف. المنشية الصغرى. هناك بنى جدي بيتًا ريفيًا جميلًا على النيل – فرع دمياط، البيت على شاطئ النهر وفي وسط أطيان فيها أشجار الكافور العملاقة. ومزروعة حدائق منها بالموالح ومنها الموز. هناك كنت أتطلع بانبهار للحياة الريفية الهادئة والإشعاع الرحب لجمال وصفاء الطبيعة. ولكني أومن بالإنسان. فالمهم

الناس. ولذلك كنت حريصة على التردد على القرية وهي تبعد عن منزلنا مسافة بسيطة

وهناك أحتك بالواقع المؤلم لحياة الفلاحين القاسية

حياة تهزني هزًّا، فتثير شعوري وعواطفي. وأنفعل بعمق أمام هذا الكم من البؤس. وكنت أرسم وأسجل من الطبيعة والواقع دون انقطاع.

كنت أعايش الفلاحات. أدخل بيوتهن فيثرثرن معي أثناء قيامهن بالعمل المنزلي. وأنا أيضًا أعمل. كنت أرسم. والفلاحة كثيرة الأشغال، لا وقت عندها للكسل. وهكذا عرفت المرأة الفلاحة وتفهمت طبيعتها وأحوالها وصورتها في أعمالي.

كنت أذهب في الصباح الباكر إلى الحقول، أرافق العاملة الزراعية وهي تقوم بجمع المحاصيل. تستمر في جني القطن. تجمعه والشمس محرقة وتخلع كيزان الذرة وتجمع العيدان في حزم الحطب. وتشقى في ضرب اللوف الذي نستحم به وكذلك تتسلق أشجار البرتقال لقطف الثمار.

كنت أبقى طوال النهار معهن أتجول في الحقول. وعند غروب الشمس يعود الجميع وأنا معهن كل إلى بيتها.

هكذا هي حياتي؛ ما بين سجن وحياة ورسم ودفاع عن قضية المرأة فقد تخليت عن مهنة التدريس بتشجيع من زوجي واتجاهي لعالم الفن والرسم.

دونت كل حياتي بكتاب مذكرات إنجي أفلاطون من الرسم للسجن.

الفن والرسم هما يحولان الواقع لواقع أصغر، وضع بؤرة ضوء على حدث معين أو شخصية معينة لإبراز جوانبها الجيدة أو السيئة.

لم يتبق إلا تاريخ واحد فقط، كي أنتهي من كل هذا البؤس الذي أعانيه وأعود لعائلتي، أو ربما لا أعود.

حقًّا لا أعلم ما سيحدث، كلها تخمينات من وحي خيالي، لكن كل ما أتعجب حدوثه هو الواقع الذي أعيشه هنا أو هناك، لا أعلم حتى الآن أنا بحلم أم واقع.

ضوء الصباح يعاكس عيني، لا أستطيع أن أفتح نوافذي لدخوله، أغلقتها بضع ثوانٍ ثم عاودت فتحها، أشياء كثيرة من حولي غير واضحة الملامح، كل شيء يهتز، لا شيء ثابت، شعرت بالخوف مددت يدي لألمس أي شيء، سمعت نداء خفيفًا من اليمين:

- عزيزتي كيف حالك، لم أكن أعلم من بجواري.

سألني بلهفة: هل ترين أي شيء؟

قلت: لا..

ثم سألته: من أنت؟ وأين أنا؟

رد: أنا جمال زوجك.

- حسنًا سيد جمال، أنا لا أتذكر أي شيء ولا أعلم من أنا.

رد قائلًا: وضع طبيعي حبيبتي؛ فقد اصطدم رأسك بحادث سيارتك، الحمد لله أنكِ بخير.

توقفت عن الحديث، وبدأت أعصر ذاكرتي لأصل لأي شيء، لكن قطع تفكيري صوت رجولي آخر بالمكان قائلًا:

- صباح الخير أستاذ جمال حمدًا لله على سلامة أستاذة جيهان.

اسمي جيهان، لكني لا أتذكره أيضًا، سألت الدكتور: لماذا لا أتذكر شيئًا؟ كل ما لدي ممحو!

قال: إنه عَرض مؤقت، سيختفي مع مرور الأيام.

سألت مرة أخرى: ماذا حدث لي؟

رد قائلًا: حادث أدى لعمى مؤقت، ولكن ستزول أعراضه مع الوقت.

ناديت "جمال" زوجي كما قال لي، سألته:

- هل كنت محبوسة بمكان ما ووجدتني، أم ماذا؟

قال: كنا بطريقنا إلى الإسكندرية لقضاء عطلة نهاية الأسبوع ووقع حادث على الطريق الصحراوي، كنتِ تقودين السيارة، فأنا لا أحب القيادة. سأتصل بأختي لتحضر ابنتنا فهي مشتاقة لكِ كثيرًا.

- ابنتي؟ هل لي ابنة؟

- أجل لنا ابنة وابن أيضًا رحمة الله عليه.

- هل مات؟

- أجل.

- كيف مات؟

- كان مريضًا رحمة الله عليه.

- كيف لا أتذكر كل هذا؟ رأسي يؤلمني.

- حسنًا جيهان اهدئي، سأتصل بالطبيب.

أعطاها الطبيب حقنة مهدئة جعلتها تنام سريعًا.

استيقظْتُ من نومي وكلي يقين أن الحُلم الوحيد الذي أنتظره كي تنتهي تلك الفترة، وتلك الوحدة، وأعود لحياتي وأسرتي، وأنتهي من تدوين تلك التواريخ كلها والتي قمت بالبحث عن الشخصيات وتواريخ تلك الأحداث ودونتها في مذكراتي كي تكون كل الأحداث صحيحة ومؤرخة، عن طريق ذلك الهاتف. حقًّا لا أعلم كيف يضعون لي ما يلزمني تمامًا من أشياء، حتى أبسط الأمور حدوثًا كنت أتجاهلها لكنها كانت تظهر لي وتؤكد احتياجي لها. بقي تاريخ واحد. أي شخصية نسائية واحدة، لا أعلم متي؟ أتمنى أن أنظر إلى جسدي وأراه دون تواريخ.

التاريخ؛ ماضٍ أو حاضر أو مستقبل. لا يمكن تخيل الحياة والزمن دون تواريخ توثق كل أحداثنا، تاريخ ميلادك، بالتأكيد مهم، تخيل ما سيحدث إن لم تدون تاريخ ميلادك، أبسط الأمور لن تعرف عمرك.

وهل يعيش الإنسان دون تحديد عمره، إنه لدرب من المستحيل.

الظلم من أكثر الأسباب التي طمست قلوب الكثيرين، غيرت نفوسهم، جعلت الكره يطفو على سطح مشاعرهم، إن أبغض الأشياء على النفس هو ظلمها. هناك من ظُلم لكن التاريخ نصفه. تلك المقدمة للشخصية الأخيرة التي سأدونها بمذكراتي هنا وسأختم بها كتابي الذي سأسميه "**تاريخ على جسد عارٍ**"، أجل جسد عارٍ، ذلك تخليدًا للمرأة لأنها ليست جسدًا فقط لمن يرى ذلك، المرأة هي روح المجتمع، ولا أثني عليها إن قلت: من دون المرأة تبهت الألوان وتجف الضحكة على الوجوه، وتصبح الحياة صامتة، الطيور ستغرد لمن؟ والكلمات والغزل لمن؟ من دونها ستكون الكلمات مترددة على الشفاه خوفًا من الخروج، ولا أحد يستوعبها، الحب سيقيم مراسم دفنه، وتعلو آيات الترحم على السكينة. وهذا لا يفي حقها.

حسنًا سأخبركم الآن عما رأيت بحلمي الأخير.

فتاة صغيرة تعيش بمدينة الإسكندرية، لأب يمني وأم تركية لكنها عاشت وترعرت بمصر، مواليد ١٩١٣ كان والداها من شارك بالثورة العربية الكبرى.

خطبت في سنة ١٩٢٩م إلى الأمير محمد إدريس السنوسي أمير برقة، قبل أن يصبح ملكًا على ليبيا، إلا أن الخطبة فسخت سنة

١٩٣٠م لأسباب غير معلومة.

تزوجت من مصطفى الخربوطلي الذي توفي بعد زواجه منها بثلاثة أشهر فقط إثر إصابته بالزائدة الدودية.

ثم تزوجت سنة ١٩٦٠م من عمر بسين وهو تركي الأصل، وقد توفي بعد زواجه منها بثلاث سنوات.

تلك المعلومات التي عرفتها من محركات البحث، لكن ما عشته أنا من أحداث كانت مع الأديب عباس محمود العقاد.

كنت فتاة أحب الاطلاع، نهمة في القراءة، أطالع كل ما أراه، من السياسي والديني وغيرهما.

داومت على حضور الندوة الثقافية في صالون عباس محمود العقاد، والذي تعرفت عليه في مكتبة الأنجلو المصرية بالصدفة ولبى دعوتي فزارني في منزلي ثم توطدت علاقتي به، كنت أجيد أربع لغات: العربية، والإنجليزية، والفرنسية والعبرية،

وأهلتني هذه التنشئة كي أؤلف كتابًا يعد من أعمق الكتب المؤلفة عن فلسفة الأديان والأديان المقارنة.

فقد كان هذا سببًا لتعرفي على العقاد والذي نعتني بأني بألف رجل.

تعرفت على العقاد في مكتبة الأنجلو المصرية عندما عرضت كتابي الأول على الناشر. وسرعان ما أصبحت أنا وزوجي من أبرز رواد صالونه الذي كان ينعقد كلَّ يوم جمعة. واستعان بي العقّاد بترجمات

للكتب المؤلَّفة باللغة الفرنسية. أعتقد أن أبكار من النوع الذكي اللماح، والظاهر أنَّ عقليتها الفذة في توفرها على العمق التحليليّ المنطقيّ جعلت العقّاد يلقبها "بالسيد أبكار" كلما أهدى إليها أحد مؤلفاته عند صدورها! وليس هذا بغريبٍ على العقّاد المعروف بمنظوره الخاص عن المرأة!

والغريب أنَّ أبكار كانت تعتزُّ بهذا اللقب وتراسله كلما سافرت بعيدًا عن القاهرة وتخاطبه في رسائلها "بوالدي العزيز"، وقد أهدته كتابها "إسرائيل والأرض الموعودة".

تلك معلومات إضافية أوردها هنا عنها، فلقائي مع العقاد لا يتعدى حلمًا واحدًا، ولكني سأنقل كل ما يخصها هنا حتى تنال حقها، فهي تستحق أن يكتب عنها التاريخ، كفاها تجاهلًا من ورقات وأقلام التاريخ. ليحتضنها الورق وتلتق آثارها بالحبر والقلم. اليوم دونت آخر أسماء كتب أبكار السقاف، وكانت مؤلفاتها ما نشر منها وما منع كالتالي:

مؤلفات أبكار ١٧ رواية:

١- السهروردي.

٢- الدين في الهند والصين وإيران.

٣- إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة.

٤- الدين في شبه الجزيرة العربية.

٥- الحلاج.

٦- الدين في مصر القديمة.

٧- همسة في أذن إسرائيل باللغة الإنكليزية.

٨- محمد النبي، لم ينشر بعد.

٩- المسيح، لم ينشر بعد.

١٠- النبي موسى، توفيت قبل إتمامه.

١١- مقدمة اللغات، لم ينشر.

١٢- أصداء متفرقة، قدم له الكاتب مهدي مصطفى.

١٣- الليل والقلم، شعر لم ينشر.

لم تنل أبكار حتى وقتنا هذا الشهرة التي تستحقها، فقد كانت كتاباتها جريئة منها ما نشر ومنها ما منع.

سأغلق الحاسوب بما دونته من مذكراتي وأحاول أن أتعايش مع حياتي الحالية، بعد أن تم طرح الفكرة ولاقت إعجاب الكل. المحيطين بي مثل زوجي وصديقتي. رغم خروجي من المستشفى بعد حادث السيارة الأليم وفقدان ابني الصغير، وفقدان جزء من ذاكرتي، إلا أنني لم أنس شيئًا من أحلامي تلك، والتي تناوبت عليَّ مدة الغيبوبة أكثر من خمسة عشر يومًا بالأحلام المتلاحقة، بغرفتي والمرايا فقد كانت سبب إلهامي لكتابة كتاب؛ **تاريخ على جسد عارٍ**. فعلًا رُبَّ ضارةٍ نافعة. فالأحلام حين تتحول لواقع تكون لها أولوية في الفرح والاهتمام. دونت كل ما رأيته في أحلامي كما كنت أدونها تمامًا بتلك الغرفة المنعزلة، غرفة المرايا، ووثقتها بالتواريخ، الآن لا

شيء يعزلني عن العالم، أعيش بحريتي المطلقة، أعانق شمس الصباح وأسهر مع القمر أحتضن ابنتي وأبكي ابني، أكتب ثم أكتب وسأظل أكتب حتى تميل بي الشمس إلى الغروب.

العمل عبادة.. عدت إلى عملي، وبدأت أزاول أنشطتي من جديد، بكل حب واشتياق، وكأن تلك الفترة التي قضيتها بالمرض جعلت مني شخصًا جديدًا، فقد لاحظ ذلك أيضًا أصدقائي بالعمل وزوجي وصديقتي، لم يتردد أحد في إخباري بذلك، كنت سعيدة جدًّا بما يقولون لأنني أيضًا أشعر بذلك التغيير، أعترف أنه أحيانًا نصاب ببعض المحن لتعطي لحياتنا دَفعة وشكلًا جديدًا، نصاب بالتراخي والجمود من تخمة الحياة، فلا نجد ما يجدد فينا الروح، والعقل يصاب بشتات لا يشتهي التفكير بإبداع.

فبراير؛ يصادف اليوم عيد الحب، بالكاد أتذكر أول عيد حب يمر بيني وبين زوجي، كنا بالجامعة، جمال كان حساسًا جدًّا من أقل الأشياء، عندما رفضت هديته بكل كبرياء بحجة أننا لا زلنا طلبة ولا يمكن أن يرهق والده بتلك الأشياء المادية التي لا قيمة لها، شعر بالإهانة وقتها، ولم يحدثني لمدة أسبوعين، اضطررت إلى أن أذهب إليه وأحدثه أنا، فكان من أمتع الأحاديث التي مرت بنا حين ناديته من بعيد فنظر إليَّ بعتاب جعل نبضات قلبي تشعر بدقات الاستمتاع، فاقتربت منه.

ناديت: جمال، لماذا تتعامل معي بهذا البرود؟

قال: لقد كسرتِ بي شيئًا لا يمكن أن تصلحه الأيام.

قلت: أنا لا أهتم بتلك الشكليات فالهدايا ليست دليل الحب القاطع، فأنا أفضل أشياء أخرى.

قال: وما هي؟

نظرت إليه وابتسمت: الأفعال يا جمال.

وأكملت كلامي: أشعر أن الهدية رشوة، والحب لا يقبل الرشى والمجاملات، الحب منبعه القلب الذي يعطي لك نبضات الحياة، ومن دونه لا يمكن أن تعيش. فهمت ماذا أقصد يا جمال؟

- أجل فهمت، فأنا لا أرشو مشاعرك، أنا أتبع نبض قلبي فقط الذي يعتبرك جزءًا من كيانه ونبضة من نبضاته، بل هو لأجلك يعيش.

قبلت الهدية بكل هدوء، ولم أرفض له رشوة مرة أخرى أبدًا.

فكانت تلك الرشى من أجمل الأشياء، حبًّا لي، وأخذتها معي بعد الزواج وما زلت أحتفظ بها حتى الآن بين أشيائي الثمينة.

جمال لم يكن لي يومًا زوجًا تقليديًّا، أو أبًا كما يقال، كان لي سندًا، فعلًا بمعنى الكلمة. اختلفت الهدايا بعد الزواج بالطبع. ولكنها تحمل نفس المذاق.

اليوم سأعد بعض الأكلات المحببة له، فأعلم جيدًا أنه لن ينسى ذلك اليوم. قد تتمنى النساء رجلًا مثله، لكن أنا لا أهتم بتلك الأمور والهدايا ولا أنتظرها. فعيبي أنني عملية وعقلانية جدًّا، وهو رومانسي أكثر مني. فهكذا تكون الأشياء مكتملة، والحياة متوازنة. أن يتقابل التضاد ويفترق المتشابه، لم أحزن يومًا على هدية لم تأت ولا مناسبة نسيها، كل الأمور تلك لا تمثل لي أهمية.

الحياة بالنسبة لي ابتسامة صادقة، وقلب صافٍ لا يحمل حقدًا، أيضًا شعورك بالآخرين من أفضل الأشياء التي يتسم بها الأشخاص. فالحياة أصبحت روتينية أكثر من اللازم، نعيش بدوامة لا تتوقف، الوقت ينهمر من بين أيدينا كالماء.

السرعة سمة العصر.

العالم اجتاحه الجنون.

المادة تسيطر على كل شيء.

النقود لغة عالمية، الأخلاق تندثر، الأصوات عالية، الأغاني صاخبة، القراءة أصبحت متاحة بعد وجود الكتابpdf ولا أحد يقرأ إلا القليل.

مذ أيام قليلة اجتاح العالم مرض قاتل اسمه الكورونا، يشبه مرض الأنفلونزا العادي ولكن أشد فتكًا منه، انتشر بالصين أولًا ثم انتقل إلى الدول المحيطة، انتقل لأوروبا وأمريكا ودول آسيا بشكل خاص، مات الآلاف منه خلال أيام، ولكن هل يختلف الموت إن

كان بفيروس أو بحادث أو مرض، يقال تعددت الأسباب والموت واحد، هي أسباب ولكن النتيجة واحدة.

في المساء أتى جمال ومعه هديتي التي أشتاق لرؤيتها، هو لا يخبرني بها، دائمًا يجعلها مفاجأة.

أتذكر وحدتي بتلك الغرفة وأحلامي واشتياقي لحياتي، فعلًا كنت مشتاقة رغم تعبي وعدم إدراكي لما كان يحدث، كان داخلي ينبض بأشياء أميل لها وأشياء تأسرني، وحياتي التي أحبها.

الزواج منظومة قائمة بذاتها، كأي منظومة بالكون، إن اختل شيء ما أصبحت المنظومة غير مكتملة؛ لذا وجب على الطرفين أن يحافظا على اتزانها.

الآن سأخلد للنوم بمخدعي وبجانب زوجي وابنتي، سأخلد للنوم بدون أحلام أو بطولات نسائية.

صباحًا؛ قررت عمل فنجان قهوة، وسماع أغنية لفيروز، القهوة وفيروز لهما نفس المذاق، يعطياني دفعة للحياة، يجعلان الصباح مبهجًا تتفتح زهور النفس وتستقبل يومها بسعادة، تجعل مشاعرك وعقلك في حالة يقظة تامة.

مستعدة لاستقبال أي مشاعر، سلبية أو إيجابية.

بعد فنجان قهوتي، أعاود الحديث عن كتابي الذي أعيد كتابته أكثر من مرة لتوثيق التواريخ وإضافة بعض المعلومات عن الشخصيات المحورية في الكتاب، فلا يمكن أن أقدم تلك الأحلام

كما هي.

نحن بعام ٢٠٢٠ هناك الكثير من الأحداث العجيبة التي تمر بها الحياة، لا أعلم كيف يتم القفز عاليًا بالأحداث مرة واحدة، كنت أظن أن الأمور ستظل خامدة لأطول وقت ممكن، لكن التصعيد في الأحداث المحلية والعالمية زاد عن حده. أطالع الصحف اليومية، أقرأ العناوين الرئيسية، حروب عدة بين دول عظمى، وتهديدات ولجوء مواطنين عرب لدول أجنبية، ولكن أكثر ما يتصدر العناوين الرئيسية فيروس كورونا القاتل. ذاك الفيروس الذي أودى بحياة الآلاف، وخاصة بلدة الصين، التي انتشر بها كوباء وانتقل إلى باقي الدول كالنار في الهشيم. يليها إيطاليا وإيران في عدد الإصابات وأعداد الموتى، لا أعلم هل هي حرب بيولوجية أم هي مصادفة كونية لا أكثر.

ألملم أوراقي وأحزاني لأضعها جانبًا حتى أعد ذكرياتي وأضعها على مائدة الحنين وأتذكر أيامي حين التحقت بقسم الصحافة، وشدة تعلقي بها، كنت أحلم منذ الصغر بأن أصبح صحفية وكاتبة كبيرة، تمر الأيام وتتحقق الأشياء التي نحبها، رغم بطء تحرك الأحداث، إلا أنها تأتي، وهذا ما يجعلنا لا نفقد الأمل، فنتعلق بأمل آخر، وهكذا الحياة.

أحضرت بنطالًا وبلوزة، وضعت على وجهي القليل من مساحيق التجميل، أستعد للخروج، لقد مرت فترة النقاهة وأستطيع الآن الخروج، أذهب إلى النيل، لأجلس هناك بعض

الوقت فقد اشتقت له، النيل كالدماء يجري بعروقنا، لا يمكن أن نهمله، لا أعلم كيف سنعيش بدون مياه النيل؟

بعد مشكلة سد النهضة، تلك المشكلة التي نحاول أن نتجنبها طوال السنوات الماضية لكنها ما زالت قائمة حتى يومنا هذا وتكبر معنا، ذلك السد الذي قامت ببنائه دولة إثيوبيا، سيقلل حتمًا نسب المياه، لدينا – نحن المصريين - لا يمكن أن نستغني عن المياه، ولنا مفاهيم خاطئة في استعمال المياه، فتجد الصباح هو المقاهي التي لا يبدأ الصباح فيها إلا برش المياه في الشارع، وربة المنزل تترك المياه مفتوحة بينما هي تتحدث في الهاتف، أولاد المدارس لا يحافظون على مياه الصنابير. وأشياء جمة لا حصر لها، التعامل مع المياه كالتعامل مع النعم والنفائس، لا إهدار، ويجب الحفاظ عليها.

نزلت إلى الشارع القاهري الذي يعج بالمارة، وسيارات الأجرة، ودخان العوادم، وبعض الباعة الجائلين هنا وهناك، دق هاتفي الخلوي، إنه زوجي جمال.

- كيف حالك حبيبتي؟

- أنا بخير حال حبيبي.

- إلى أين ستذهبين؟

- جولة صغيرة بشوارع القاهرة؛ فأنا -كما تعلم- اشتقت لتلك الأشياء، رغم أنني لم أكن مسافرة أو غائبة عنها فترة طويلة، لكن ما حدث لي من أحداث وأحلام جعلني أشعر أنني كنت بغربة وعدت

منها توًّا.

رد جمال: حسنًا، كما تشائين، متى ستعودين؟

قلت: في الثامنة مساءً، بعد انتهائي من زيارة الطبيب.

جمال: حسنًا، سأوافيكِ هناك ونعود معًا من عند الطبيب.

- سأنتظرك حبيبي، مع السلامة.

أغلقت الهاتف وأنا منبهرة بتلك الفتاة الصغيرة التي تبلغ من العمر سبع سنوات وتحمل بيدها مجموعة من الكتب وتجلس بجوار والدتها البائعة بجوار النيل، تبيع متفرقات من الأشياء، والصغيرة تلتهم الكتاب بعينها الدقيقة وفمها الصغير وشعرها الأسود الناعم، ذكرتني بأغنية المطرب محمد منير، يا بنت يا أم المريلة الكحلي. اقتربت منها وتصنعت شراء بعض الأشياء من والدتها وفتحت معها حديثًا.

- من الصغيرة؟

البائعة: إنها ابنتي بالصف الثاني الابتدائي.

سألتها: هل تشجعينها على الدراسة؟

قالت: أجل، وأكملت حديثها، لها أخ بالثانوية العامة وأخت بالصف الثالث الإعدادي.

اندهشت، وسألت نفسي: "كيف تنفق عليهم؟".

نظرت إليّ البائعة وردت على سؤالي وكأنها قرأته على ملامحي:

ربك كريم يا أستاذة، مبينساش حد.

قلت: ونعم بالله.

أنهيت حديثي بشراء أشياء لا أحتاج إليها ولكن شعرت بالراحة لفعل هذا.

أكملت خطاي على شاطئ النيل ومتابعة خط سير المراكب النيلية وسماع بعض الأغنيات الشعبية التي تحمل معاني غريبة نوعًا ما، أتذكر أغاني المطرب الشعبي أحمد عدوية وكيف واجهها الناس في البداية بالرفض أيضًا ولكنه استطاع أن يجعل لنفسه لونًا خاصًّا به ما زال يردده الناس حتى الآن.

اللون الشعبي ظهر منذ الستينيات للفنان محمد رشدي، مثل طاير يا هوا وعدوية وعلى الرملة من أبدع الأغاني التي علقت بأذهان الناس، فالشيء الأصيل يستمر، أما الرديء فيتناسى بسرعة.

جلست على كرسي خشبي يطل على النيل مباشرة، شربت كوب شاي بالنعناع. من أجمل اللحظات التي مرت علي. أجل رغم الزحام والعوادم وصوت الأغاني الصاخب والباعة، رغم كل هذا إلا أنه جعلني أحتضن الشارع بقلبي وليس عقلي.

كانت ابنتي عند أخت زوجي ومن المفترض أن أحضرها اليوم بعد موعد الطبيب. اشتقت لحضنها الدافئ ولكلماتها الرقيقة وخوفها علي. ندا ابنتي الوحيدة، بعد وفاة ابني، الله يعطي ويأخذ، فالحمد لله على عطاياه وعلى ما يأخذ، الحمد في السراء والضراء.

لكن أولًا سأبتاع لها لعبة صغيرة، وطعامها الذي تفضله، ميعاد الطبيب اقترب، سأستقل التاكسي كي لا أتأخر.

ركبت مع سائق نحيل الجسد، يمسك بيده هاتفه الخلوي، يكلم واحدة شعرت أنها زوجته للوهلة الأولى، لكن سرعان ما علمت أنها ابنته الصغرى التي لم تتجاوز أربع سنوات، وحيدة بالمنزل، كما سرد لي هو، فمن يعيش بمصر يعلم جيدًا من هو الشعب المصري، وكيف تتقبل الجميع وكأنهم جزء من عائلتك، حتى وإن وقفت معه بضع دقائق، أو جمعكم طابور عيش، أو أتوبيس وقطار وربما شباك المعاشات، ستلقي بما يحمله قلبك من حمل وستزيل عن كتفك الحمل قليلًا لتشاركه ذاك الشخص بجانبك، وهو أيضًا سيقوم بدوره على أكمل وجه ويشاركك أحزانه دون لحظة تردد واحدة، المهم علمت منه أنه على خلاف مع زوجته، وطلقها وتركت له ثلاث بنات منهم تلك الصغيرة التي أفاقت من النوم وذهبت لمحل صديقه بجوار البيت لتحدثه وتسأل عن ميعاد رجوعه، فأمهم تركتهم له، وهو يتكفل بهم، المشكلة ليست في كل هذا، المشكلة في تلك الطفلة الصغيرة التي تفتح عينيها لتجد الجدران صامتة، والبيت ينتحب من وحدته والخوف رداء لها، نزلت من التاكسي وكلي حيرة، وقلبي يؤلمني على تلك الصغيرة، لا أعلم لمَ أصبحت الأمهات أكثر قسوة وعنفًا، من السبب؟ الرجل أم المرأة، المسئولية أم الفقر، الحب أم الجفاء، أعتقد أن تلك الأسباب كلها مدانة، تشير إليها أصابع الاتهام، الحياة الزوجية تقوم على محورين؛ التفاهم

والاحترام، أما الحب فهو يولد مع الأيام، أجدادنا مثلًا كانوا ناجحين في حياتهم الزوجية، لم نسمع يومًا عن نسب الطلاق التي فاق عددها الآلاف في المحاكم، حتى تربية أولادهم مختلفة تمامًا عن تربية أولادنا، كان الأطفال قديمًا لا يملكون ما يملكه أبناؤنا اليوم، من تقدم تكنولوجي ووسائل اتصال السوشيال ميديا، كانت الحياة هادئة، الاحترام متبادل بين الصغير والكبير، أما اليوم فغاب الاحترام بشكل ملحوظ. وصلت إلى مبنى العيادة، صعدت لعيادة الطبيب، وجدت العيادة شبه خالية، انتظرت بضع دقائق وخرجت لأجد زوجي ينتظرني، فرحت به كطفلة صغيرة، ابتسم لي وخرجنا إلى الشارع.

سألني: هل كل شيء على ما يرام؟

قلت: الحمد لله على كل حال.

ذهبنا وأحضرنا ندا وعدنا إلى البيت في سلام.

صباحًا؛ ٨ مارس ٢٠٢٠ إنه عيد المرأة، ذكرني هذا بما رأيته بأحلامي. من المصادفات أن يضم شهر مارس أيضًا عيد الأم، لكن هل الأم يكفيها يوم واحد لتكريمها؟ الأم قنديل يضيء حياة أبنائها، يسيرون على خطى نوره. يستمدون الدفء من أشعته، يظل نوره متوهجًا كلما اهتممنا به. أيضًا الأم تحتاج إلى الاهتمام الذي تمنحه للجميع. رغم أنها لا تنتظره ولا تطلبه. اهتموا بأمهاتكم ولا تجعلوا قلوبهن تتألم من أفعالكم.

صباح الخير أمي

صباح الخير ندا

كيف حالك اليوم؟

الحمد لله ندا، كيف حالك أنتِ، هل نمتِ جيدًا؟

أجل أمي

ما هو يوم المرأة، هل هو عيد الأم؟

لا حببتي، عيد الأم في ٢١ مارس.

حسنًا أمي كنت أخشى أن يأتي ولم أحضر لكِ هدية.

أنتِ هديتي يا ندا، لا أحتاج إلى أي شيء غير أن تكوني بخير.

أحبك أمي.. أحبك ندا، هيا نتناول إفطارنا.

شاهدت على شاشة التلفاز اليوم أعداد وفيات كثيرة من فيروس كورونا، ببلدان عدة عربية وأوروبية، الأمر حقًّا يبعث على الخوف، ربما بعض التنبؤات ستتحقق، ربما ستتحقق تلك الأفلام التي توقعت في المستقبل أن العالم سيتفشى فيه فيروس قاتل وسيموت نصف سكان العالم، ويصبح العالم موحشًا بلا حياة، هل أصبحنا زومبي مرعبين نخاف من بعضنا البعض، نخشى التلامس والاقتراب، حتى المصافحة توقفنا عنها. أخشى من الأيام القادمة، الموت يطرق كل باب، لا يفرق بين عربي أو أجنبي، أيًّا كانت ديانته، يتوقف أمامه كل شيء، صراعاتنا واختلافاتنا ونزاعاتنا، السعي خلف

المال، رغباتنا ونزواتنا، كل شيء. فيروس كورونا القاتل أطلق زئير الرعب في قلوبنا، المطارات توقفت عن منح تأشيراتها، تعطلت الموانئ، توقفت العمرة لبيت الله الحرام. بعض الدول هبط اقتصادها، والكثير انهارت حياته، اليوم أسجل هذا ولا أعلم العام القادم ماذا سيحل بالعالم وبنا. أتمنى أن يكون شيئًا عرضيًّا ويمر.

هاتفي يدق، وأشعر بأن هناك أمرًا ما.

قلت: من المتصل؟

قال: المدرسة..

للحظة ما دق قلبي وشعرت بدوار في رأسي، حسنًا هل أستطيع مساعدتك في شيء؟

رد قائلًا: نرجو من سيادتكم زيارة المدرسة غدًا.

قلت: إن شاء الله. أغلقت الهاتف بعين حزينة دامعة.

في الصباح الباكر حملت ما تبقى لي من ذكريات وذهبت إلى المدرسة، لأسترجع بعض أشياء ابني، عدت إلى المنزل ولم أكن أعلم أن تلك الزيارة هي القشة التي قصمت ظهر البعير. لم أعد أطيق ما حولي، حدثت لي انتكاسة مرضية، عدت إلى المشفى مرة أخرى بعد إغماء وإعياء، الآن أكتب وأنا بسرير المشفى، أتمنى ألا أعود للغيبوبة مرة أخرى، ولتلك الأحلام والغرفة المغلقة والمرايا. عادت ابنتي لعمتها وعاد زوجي لوحدته وأنا عدت للمشفى. لطالما كنت أكره المستشفيات وروائحتها، أكره تلك الممرضة التي تنتظر منك

البقشيش لتعمل بضمير، وذاك الطبيب الذي تنتظره بالساعات ليطمئنك على مريضك، فيأتي متأخرًا من عيادته الخاصة ليقف أمامك بضع ثوانٍ، ويذهب دون أن تكمل الحديث معه، وكأن وقته الثمين لا يمكن أن تنال منه أنت مجانًا. الطب مهنة الشرفاء، مهنة مقدسة، لا يمكن أن تستهين بقسم قمت بأدائه. لم أتمنَّ يومًا أن أصبح طبيبة، ولكن أقدس مهنة الطب.

هناك أشياء أخرى كرهتها.

لم أتمنَّ يومًا أن أكون تلك الزوجة الضعيفة، التي لا تملك خيارًا واحدًا في حياتها، تتقبل الحياة وتعيش لأجل أولادها فقط، تخاف كلمة الطلاق، ليس حبًّا بل خوفًا من نظرة المجتمع لها كونها مطلقة، لكن عندما تزوجت وأنجبت وعلمت معنى الأمومة، عذرت كل امرأة ضحت بسعادتها لأجل أبنائها؛ فهم يستحقون أن نضحي من أجلهم، فما ذنب طفل صغير ليحرم من أمه لمجرد خلاف أو عدم تفاهم بين زوجين؟!

أكمل حياتي الآن بين أروقة المستشفى، كرهت الأحلام والواقع والمرض، أشتهي النوم يومًا كاملًا دون أحلام، دون أفكار، أن يمر الزمن دوني، أن أبقى في وقت متجمد لا يمر لا يُقدم ولا يُؤخر، يقف عن الدوران، أو أن يسقطني من حساباته.

يزورني زوجي بين الحين والآخر، وصديقات العمل يحملن الورود والشيكولا، يهنئنني على كتابي ويرثون لحالي، يغادر الجميع

وأبقى هنا وحدي بين جميع الأشياء التي لا أحبها، العزلة والمرض، لكن أحمد الله على كل شيء. قال الطبيب إن الأمر لن يطول. أمسك بيدي الهاتف أطالع الأحداث اليومية، أرى صور ابني المحفوظة على الهاتف، تلك الهواتف التي جعلتنا نتناولها كالعقاقير المهدئة، من حالات الملل، وتضييع الوقت بلا أي فائدة، سهلت علينا الكثير وبنفس الوقت أتاحت الفرص للكثيرين للتحايل والنصب بشكل وآخر، خدمت البشرية بإيجابياتها ونشرت سلبياتها بشكل تصعب معالجته، لا أحد الآن يستطيع الاستغناء عن هاتفه الخلوي، حتى مشاعرنا أصبحت على الهاتف، مشاكلنا، أكلاتنا، الهاتف أصبح رفاهية للبعض، سأرسل رسالة لابنتي؛ فقد اشتقت لها. دخلت الممرضة لإعطائي العلاج.

سأحاول أن أقف وأشاهد من النافذة الشارع وحركة السير، هناك شابان يقفان على الرصيف يرتديان بدلًا، بيد أحدهما باقة زهور جميلة، يبدو أنه ينتظر أحدًا. نظرت بعيدًا، هناك امرأة جميلة تحمل طفلًا يبدو أنها عائدة من الحضانة، تحمل حقيبة صغيرة تخص الطفل، عدت للشابين وجدت فتاه تمر بسيارة ويركب الشابان معها. يبدو من فستانها أنهم ذاهبون لمناسبة. سأعود لسريري فقد حان موعد النوم.

بالثامنة صباحًا جاء زوجي واصطحبني للمنزل؛ فقد صرح الدكتور بالخروج.

مرت أيام عديدة وأنا أقاوم انتكاساتي بمساعدة جمال، الذي لم يتركني في أشدها. قررت السفر لبضعة أيام حتى تستقر حالتي.

مطار القاهرة..

أودع جمال وابنتي وأخت زوجي، أسبوع خارج القاهرة حسب إرشادات الطبيب، صعدت سلم الطائرة للذهاب إلى شرم الشيخ، حيث الهواء المنعش النقي، والشوارع الواسعة التي جملت بالزهور، والفنادق الفخمة، وخليج نعمة من أجمل بقاع الأرض، قطعة من وطني تتحدث عن جمال مصر وجوها الساحر. أحب ترابك يا بلدي. تلك القطعة بالذات لها تاريخ نابض، كانت صحراء خاوية لا يوجد بها بشر وكان يطلق عليها "خشم الكلب" لأنها منطقة شديدة الجفاف فعندما يتجمع السيل فوق الهضبة الوسطى بجنوب سيناء يأخذ طريقين إما خليج العقبة شمالًا أو السويس غربًا، وبهذا تظل شرم الشيخ جافة قاحلة.. لذا لم يقم على أرضها بدأً من مخر السيل وصولًا للمطار أي المنتجع.

تم بناء مستوطنة إسرائيلية في منطقة شرم الشيخ في جنوب شبه جزيرة سيناء، وهي أراضٍ مصرية كانت تحت الاحتلال الإسرائيلي من ١٩٦٧ – ١٩٨٢ وتم فتح مطار لها في عام ١٩٧٦، وهو يعرف اليوم باسم مطار شرم الشيخ الدولي.

في ربيع عام ١٩٨٢ تم إخلاؤها، وأعيدت سيناء إلى مصر وفقًا لاتفاقية كامب ديفيد. أصبحت أجمل بقاع الأرض. إن طال الحديث عن شرم الشيخ لن أوفيها حقها.

الآن بشهر مارس حيث جمال الطقس في ذلك الوقت الذي يبدأ فيه الربيع بطرق الأبواب، مترددًا في الدخول، فتسمح له بذلك وهو يعيش بين حيرة القدوم وانتظار الشتاء بالرحيل أولًا. استمتعت بكل لحظة وبكل شيء هناك.

ساقتني قدماي إلى متجر للكتب، دخلت دون تردد، اخترت ثلاثة كتب لتكون لى رفيقة تلك الفترة، مذ كنت صغيرة كان الكتاب رفيقي الدائم، لا أمل منه ولا نختلف على أي سبب، يعطي بلا مقابل، يمنحك السعادة دون أن تطلبها، يطل على العالم من نافذته وأنت جالس لم تحرك قدمًا واحدة. ثلاثة كتب كافية لتلك الفترة، سأبدأ بمجرد وصولي الغرفة. اخترت كتابًا للكاتب التشيكي أو الألماني فرانز كافكا، يتحدث عن رسائله لميلينا..

في بداية الخريف في شهر سبتمبر/أيلول من العام ١٩١٩، وفي مقهى في براغ، كان اللقاء الأول بين فرانز كافكا والشابة ميلينا يزينسكا، حيث اقترحت عليه مباشرة ترجمة أعماله من الألمانية التي كان يكتب بها إلى اللغة التشيكية، فكانت بذلك امتدادًا له، كأنها «كافكا» آخر يتجول في شوارع فيينا.

بعد لقائهما بدءا بالتراسل. كتب كافكا ما يقرب من ١٤٩ رسالة وبطاقة بريدية. ١٤٠ رسالة.

رسائله إليها جُمِعت في كتاب «رسائل إلى ميلينا»، بينما فُقدت جميع رسائلها هي؛ ما شكل خسارة.. ومن رسائله..

أنت بالنسبة لي، لست امرأة، أنت فتاة، فتاة لم أر مثلها أبدًا من قبل، لست أظن لهذا أنني سأجرؤ على أن أقدم لك يدي أيتها الفتاة، تلك اليد الملوثة، والمعروقة، المهتزة، المترددة، التي تتناوبها السخونة والبرودة. أتعلمين يا ميلينا، إنك عندما تذهبين إليه (يقصد زوجها) فإنك بذلك تخطين خطوة واسعة إلى أسفل بالنسبة لمستواك، لكنك إذا خطوت نحوي فسوف تتردين في الهاوية، هل تدركين ذلك؟

من المؤسف أن يكون الحب كالخيل يجري في سباق وتمنعه الحواجز، ويضطر للقفز كي يفوز ذاك الحب الذي بني على سراب، ظل سرابًا لا يتحول يومًا ما إلى شيء ملموس، تظل في حالة عطش ولا يروي ظمأك إلا السراب. قد أوجه لك النصيحة هنا، ربما تنتظرها مني، لكني لن أفعل، فالحب قدر لا يمنعه حذر. من أجمل الأشياء هنا بشرم الشيخ أن الجميع يعيش في حالة سلام داخلي، تشعر أنك لست بمصر، حقًّا تعافيت بالروائح الطيبة وبالنسمات الجافة التي تمر عليك فتلقي التحية، من شدة روعتها، أشعر ببعض زخات المطر، سأخرج لأشم رائحة المطر التي لا تضاهيها روائح باريس كلها، لا أبالغ إن قلت ذلك، فرائحة المطر مميزة لا يتوه عنها

أحد، التراب المبلل يحمل المياه برقة ويعانقها برفق، فتجد طيب اللقاء يخرج منهما، سبحانه.. {وجعلنا من الماء كل شيء حي}، مختلف ألوانه وطعمه ولونه، هذا إعجاز من الله. النوم الآن أفضل شيء.

شروق الشمس يعني صباح يوم جديد، أشعة ذهبية تنعكس على سطح مياه البحر، مركب الزجاج من أجمل ما يمكن أن تقوم بزيارته بشرم الشيخ، لرؤية الأسماك الملونة بالبحر الأحمر والشعب المرجانية، أيضًا رياضة الغوص لا مثيل لها، لكني لا أحب نزول البحر، لذا سأكتفي بالمركب الزجاجي الذي يكشف أعماق البحر. لن أطيل البقاء وحدي، فمن الأسباب التي جعلتني أختار شرم الشيخ، بعد جوها الصحي، صديقتي جالينا من أوكرانيا، ذات الوجه الطفولي، صاحبة أكبر محل لبيع الزهور هنا.

وجهت لي دعوة عشاء، بأحد المطاعم الإيطالية، حيث المطبخ الإيطالي بوجباته الشهية مثل؛ البيتزا والمكرونة وكرات اللحم التي أعشقها. تقابلنا هناك واستمتعنا بوقتنا، صديقتي منذ سنوات، تعرفت عليها بأحد الشواطئ ولا زالت صديقتي حتى الآن.

مرت ثلاث ليالٍ وبقي لي ليلتان. تمنيت أن أعود طفلة صغيرة لا تحمل همًّا للدنيا، كل أحلامها لا تتعدى أن تمتلك لعبة أو تركب أرجوحة، ونحن صغار كانت الدنيا كبيرة جدًّا في أعيننا نراها من بعيد، نرتشف رحيقها، وننعم بالحب بلا أي مشاكل، لا نحمل عبئًا أو مسئولية، نأكل ونشرب ونخرج ونعود بلا أدني إحساس

بمسئولية. ليتها تعود. كان لي العديد من الصديقات، لا أعلم ما هي العلاقة العكسية بين الزواج والصداقة. تنكمش علاقاتك ويبتعد العديد من الصديقات، كل منا مشغولة ببيتها وأبنائها، حتى الساعات القليلة التي تجلسين فيها للارتياح تزاحمك الأفكار من كل اتجاه، فلا تعطيكِ فرصة لتذكر أي صديق. رغم كل الأوقات التي حظينا بها معًا، تتناسين. وكأن الزواج يغلق عليك أبوابه فلا يمكن أن تكوني حرة تمامًا أو مقيدة. أنتِ في شبه دائرة تدورين في حلقاتها التي لا تنتهي ولا يمكنك التوقف عن الدوران. لكن من المؤكد أن هناك أشياء أخرى تميزك، فمركز الكون أنتِ، وكل شيء يدور في فلكك! إن كان الرجل زورقًا فأنتِ المجداف، وإن كان رئتين فأنتِ الهواء، بل أنتِ أغنية سِلم في وقت الحرب، نغمة هادئة تجعل للحياة طعمًا. الرجل لا يملك جناحين، لكن أنتِ تمنحينه الطيران ليحلق، كلمة واحدة وربما نظرة عينيكِ بحر يُغرق.

ألملم بعض حقائبي؛ فقد حان وقت الرحيل، أكثر ما يمكن أن يكون مزعجًا بالتنقل هي الحقائب، هل من المفترض أن تحمل كل دولاب ملابسك وأحذيتك وأنت مسافر، لست مهاجرًا، البعض يفعل، ولا يرتدي نصف تلك الأشياء. لكن بداخلنا دومًا خوف يعبث بأفكارنا، وتبدأ برسم سيناريوهات لما سيحدث معك إن لم تحضر هذا أو تلك.

وصلت المطار ولا أجد الكثير من الناس، ربما بسبب فيروس كورونا ذلك، الذي سجل أكبر عدد وفيات بفترة قصيرة على مستوى

العالم تعدت الآلاف، المطارات كانت العامل الرئيسي في نقل الفيروس، لذا توقف الناس عن السفر، وتكبدت شركات الطيران الخسائر المالية الفادحة، أصبحت المطارات شبه خالية، الخوف سيطر على الجميع، نسب الشفاء ضئيلة، وبعض البلدان التي كان اقتصادها يعتمد على السياحة، تعلن انهياره، توقفت المدارس بشكل مؤقت بكثير من بلدان العالم، وأكثر ما يؤلم هو الكعبة الشريفة، ووضع فاصل بينها وبين الناس لتجنب انتقال العدوى عن طريق لمس القماش والحجر الأسود، إنها إجراءات وقائية ولكن لها مدلول خاص بنا.

وصلت مطار القاهرة، استقبلني أحدهم لقياس حرارة جسدي، وهذا إجراء وقائي للحد من انتشار الفيروس، وأيضًا للحد من انتشاره، هذا الإجراء يتم العمل به في جميع مطارات العالم.

وصلت المنزل أخيرًا، بعد أن تم فحصي عدة مرات في شرم والقاهرة، كان بانتظاري زوجي، الذي يخفف عني الكثير، ويستوعب مرضي بشكل كبير، فهناك أزواج لا يتحملون سفر زوجاتهم يومًا واحدًا من دونهن، وكأن ميزان الكون سيختل، المرأة إنسان يشعر، يمل، يختنق، يتمنى أن يعيش بشكل آدمي، البعض من الرجال يجعلها تعيش كالأسير، وكأنه خاض حروب الدنيا كلها، وهي الوحيدة التي نجت من العالم، فلا يوجد امرأة غيرها على وجه الأرض، يتمنى لو يضعها في قمقم. لكن المرأة الآن لا يمكن أن تعتنق تلك الأفكار البالية، حتى الريفية ومن قلب صعيد مصر، أجل تحافظ على

أخلاقها مع اكتساب بعض الحريات، وانتشار التعليم جعل الفتاة أكثر جرأة وتفتحًا.

اليوم ١٢ مارس الأحوال الجوية تحذر من إعصار ورياح شديدة، تغيرات المناخ مع انتشار وباء كورونا فتح للجميع أبواب الخيال على مصراعيها ليتحول الجميع إلى نتيجة واحدة؛ نهاية العالم اقتربت، سيبدأ تعداد السكان بالانخفاض نتيجة الأوبئة والزلازل والأعاصير، ماذا إن حدث فيضان للمياه وغرق نصف سكان العالم، هل سنتحول إلى زومبي يختبئ من الشمس ونأكل لحوم البشر، أم سنعود للعصر الحجري ونسكن الكهوف ويختفي كل ما شيده الإنسان كل تلك السنين الطويلة؟ سينقطع الإنترنت والاتصال الهاتفي، وتتوقف قنوات الأخبار عن نقل الحدث المباشر لحظة بلحظة أم لا، حقًّا لا أعلم الأيام القادمة ماذا تحمل لنا في جُعبتها.

أدون هنا ما يحدث في عام ٢٠٢٠، ربما يومًا ما وبعد دمار العالم يقع الكتاب في يد أحد ما بالصدفة بين أنقاض وركام الأشياء ليقرأ ما كنا عليه، وما وصلنا إليه. لكن السؤال الأهم: هل هناك من يمتلك مركبة فضائية مجهزة بأحدث الوسائل لنقله إلى كوكب آخر ليبدأ هناك من جديد أو غواصة تحمله وينجو بها في حال حدوث فيضان؟ هل هناك من يؤمن حياته ونفسه، لا يحمل همًّا لباقي البشر، أم أن سفينة نوح ستظهر من جديد وتنجو بالأتقياء الصالحين من البشر؟ كثيرًا ما توقفت أمام تلك التساؤلات غير المنطقية. لكن كل شيء قابل للحدوث في هذا الزمن وتلك الأيام

التي لم نعد نستسيغ طعمها.

تنبأ الكثير والكثير بنهاية العالم، لكننا لا نعطي آذاننا لأحد ما. كذب المنجمون ولو صدقوا.

أخرجني جمال من أفكاري بصوته الرخيم الأجش الذي أعشقه، هيا، الغداء جاهز.

قمت لأتناول معه الغداء؛ فقد اشتقت لتلك الأشياء الصغيرة ولكنها كبيرة بالنسبة لي.

سألني: هل استمتعتِ في شرم الشيخ؟ وكيف الحال هناك؟

قلت: أجل جمال، كل شيء بديع، لم ينقصني غير وجودك بجانبي، إلا أن مزاجي المتغير منعني من أن أحادثك لتأتي.

جمال: اشتقت لكِ جي جي.

- أنا أيضًا مشتاقة لك.

تناولنا الطعام بين نظرات الحب المتبادلة والأحاديث الخافتة التي نعشقها معًا.

جلسنا في البهو لمدة ساعتين ثم انتقلنا لغرفتنا.

ما زال جمال يحبني ويفضلني عن باقي النساء، أعلم ذلك وأتجاهله كعادتي، لا أهتم بالمشاعر مثله، وهذا عيبي. لكني لا أتردد أبدًا في قول كلمة أحبك من حين لآخر إن شعرت بها وبأنني أحب أن أتفوه بها في تلك اللحظة. ولا أتحدث هنا عن التجاهل لجمال

بالمعنى الدارج.

التجاهل نوعان: خاصة في العلاقات الغرامية، الأول حبيب يشبع من الطرف الآخر ويضمن حبه، فبدأ يتجاهله عن عمد، فقد أخطأ هنا أحدهم، والثاني دفع الثمن، الحب لا يمتلئ أبدًا، إن امتلأ فاض وانسكب ولا يمكن ملؤه مرة أخرى. فحافظوا على ثلث الكوب الخالي، فإذا امتلأ ثلثاه توقفوا فورًا عن ملء الباقي من الكوب.

النوع الثاني من التجاهل هو تجاهل للفت الانتباه، أتجاهلك لتعلم أني أتجنب الحديث معك كي أبدو لك من بعيد أجمل. فتبدأ بالمطاردة الجميلة التي أنتظرها منك. لكن هيهات من يستوعب ذلك. الحب أجمل وأسمى المشاعر، لكن البعض جعله لعبة.

منذ ذلك الوقت أصبح للحب وجه قبيح يضع قناعًا ليواري سوءته لكن تفضحه أفعاله. أتمنى أن يتحول العالم إلى سلام وحب ومصالح مشتركة. لا أن يبحث كل فرد عن مصالحه الخاصة.

صباحًا سارت الأمور كما يجب، كل شيء على ما يرام، ذهبت للعمل، من هناك تابعت زوجي وابنتي بالهاتف، قرأت مقالًا بالجريدة لفت انتباهي، عن السوق السوداء.

هذه السوق لا تعتبر مثل الأسواق التجارية التي نتردد عليها لشراء احتياجاتنا. السوق السوداء هي من الباطن، أي يباع فيها بشكل غير قانوني، ويرجع ذلك لردع الحكومات لهم.

أيًّا كان هذا الشيء؛ أموالًا، أجهزة، عملة، أعضاء بشرية. المقال كان يتحدث عن تجارة الرقيق بالذات، أي تجارة البشر، كانت منتشرة في عصر الرق والعبودية قبل انتشار الإسلام، كان كل ملك أو صاحب سلطة ونفوذ يمتلك مجموعة من البشر نساء ورجالًا وأطفالًا، يعملون لديه، فهو دفع الأموال، لذا من حقه امتلاكهم، تجارة الرقيق لم تتوقف على العرب فقط بل كانت منتشرة في الغرب أيضًا وخاصة لدى ذوي البشرة السوداء، كان يتم جلبهم من أفريقيا بطرق غير مشروعة.

ما أقسى أن يمتلكك شخص وتصبح عبدًا له. تُسلب حريتك وتكون رهن إشارة منه، لا تنعم بحياتك كما تحب أن تكون، أفعالك كلها محبوسة، أمنياتك تسكن مدن الخيال، حبيسة لا يحررها إلا سيدك.

لن أتحدث عن تاريخ الرق والعبودية فهو أصبع اتهام يشير نحو الدول العربية والأجنبية، ولن أتحدث عن انتهاكات البشر نحو بعضهم البعض، والعنصرية نحو اللون والدين، كل تلك الأشياء لا تؤرق لي بالًا، بل ما يدهشني هو أن الجميع يتحدث عن الحريات، ولا يعلم أن المرأة التي ما زالت في حالة عبودية ويتم الإتجار بها وبجسدها حتى الآن، من حقها أيضًا الحرية، لا أعلم إلى متى سيظل هذا النوع من البشر ينعم بالجهل ويعيش في ظلام مهلك. يستحلون الحرام ويتركون الحلال.

من أشد أنواع الظلم الذي يفعلونه تجاه المرأة، أين الضمير وأين تعاليم الدين، فلا يوجد دين أباح واستحل هذا.

حسنًا، حان موعد عودتي للمنزل.

فتحت باب الشقة، وبدأت في تحضير الغداء لي ولزوجي، لكن ما صدمني انقطاع المياه بعد ثلاث ليالٍ من الإعصار الذي ضرب مصر، رغم أننا بوقت صعب تمر به البلاد فلا يمكن قطع المياه ونحن بأمس الحاجة لها لتطهير الأيادي من فيروس كورونا المستجد، سد النهضة بإثيوبيا أيضًا من الأشياء التي ستؤثر على مصر في الفترة الراهنة؛ حيث إن نسبة المياه ستقل وبالتالي ستتأثر البلاد بهذا. أتذكر فترة في تاريخ مصر، من أبشع الفترات التي مرت بها مصر من جوع وفقر استمر لسنوات عدة بسبب انحسار مياه النيل وبالتالي لم يتم ري الأراضي التي تطعم الفقير والغني، تلك الفترة سميت بالمستنصرية نسبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي، والذي شهد عصره قحطًا وجفافًا، وانتشر الغلاء فأصبحت حبة القمح بدرهم، مات الناس جوعًا، وأكل بعضهم بعضًا، وذكر مؤرخون أن «الشدة المستنصرية من أشد المجاعات التي حدثت بمصر منذ أيام يوسف عليه السلام، فقد أكل الناس بعضهم بعضًا، وأكلوا الدواب والكلاب، وقيل إن رغيف الخبز بيع بخمسين دينارًا، وبيع الكلب بخمسة دنانير. كما روي أن الأحباش كانوا يتربصون بالنساء في الطرقات ويختطفونهن ويقتلونهن ويأكلون لحومهن». ما أبشع ذلك.

لا أصدق أننا يومًا ما كان بمصر تلك الأحداث، لا أود أن يوجهني خيالي إلى ما هو أبشع من ذلك. أفضل ما سأفعله، النوم.

صباحًا.. ١٧ مارس ٢٠٢٠ تم إعلان أول حالة وفاة بفيروس كورونا بالقاهرة. المرض أصبح بعبعًا يخيف الجميع، حتى أمريكا وهي من الدول العظمى، تخشى مرض كورونا covid 19.. العالم لا يتحدث عن شيء إلا كورونا، نسينا الحروب الأهلية، توقفت الثورات، بعض البلدان عملت حظر تجوال، كل شيء اختلف. فعل بنا كورونا ما فشلت منظمات عالمية وصحية ووقائية في عمله. النظافة هي شعار الجميع الآن.

التعليم أصبح عن بعد أي بالإنترنت، إعطاء كبار السن والحوامل إجازة إستثنائية.

توقفت مطارات العالم.

كل دول العالم حددت ميزانيات بالمليارات لتخطي فيروس كورونا، إن عدنا بالزمن للخلف، ألم يكن أولى أن نساعد متضرري الأزمات، مثل السيول والحروب والفقراء، كم من شخص يموت من برودة الطقس داخل خيامهم. كم متضررًا كان يحتاج أي مبلغ نقدي لمساعدته. أعتقد أن الكون ميزانه اختل، وتلك الأحداث تعيد الكون إلى ميزانه.

أدون تلك الأحداث ولا أعلم بعد سنة كيف سيكون الحال ولا أحب أن أتنبأ بأي حدث، فكل من تنبأ في كتاب قديمًا بدأت تنبؤاته

في الحدوث، فقد نشر الكاتب الأمريكي «دين كونتز» رواية ١٩٨١ اسمها «عيون الظلام» تتحدث عن وباء عالمي يبدأ من الصين عام ٢٠٢٠ بمدينة أوهان تحديدًا وسيقتل عددًا كبيرًا من سكان العالم، ولكن هل هذا مصادفة أم أنها خطط موضوعة وتنفذ بدقة.

النطق بالغيب من أخطر ما يمكن، فهناك مقولة تقول: لا تنطق بالغيب، ربما هذا يجعله يحدث.

لا أعلم حقًّا إلى متى ستظل المدن الصغيرة فئران تجارب لبعض الدول العظمى.

سأتوقف هنا عن سرد تفاصيل مرض كورونا اليوم ١٨ مارس ٢٠٢٠. أعتقد أنه سيأتي من بعدي من يكمل لكم توابع ما حدث بسكان العالم من هذا المرض اللعين، وكيف توقف ومن اخترع له المصل المضاد وكيف أصبح العالم من بعده.

حسنًا سأذهب لأحضر ابنتي وأحتضنها وأعيش بجوارها تلك الأيام، الأم لا تعوض والأبناء أيضًا هم لنا سند برغم كل الأعباء التي نتحملها، مسئولية بيت وزوج وأبناء إلا أنهم "باسبور" سعادة تحمله في يدك لا تمر به على جوازات للتجديد أو مطارات للسفر ولكن يمنحك السعادة وأنت تجلس معهم بكل بساطة.

ارتديت ملابسي وذهبت لأقود السيارة وسط الزحام المعتاد بالقاهرة، أين جمال لينتشلني من هذا كله، هو يعلم مدى كرهي للزحام.

وصلت، صعدت السلم ورننت جرس الباب، لم يفتح لي أحد، انتظرت قليلًا وأخرجت هاتفي لأتصل بهم ولكن لا أحد يجيب.

بدأ القلق يدب في عروقي، وشعرت بدبيب الخوف يهزني بعنف، ونبضات قلبي تزداد.

لا أعلم كيف فتحت باب السيارة وأدرت المحرك، ذهبت وأنا أهاتف زوجي تارة وأخت زوجي تارة أخرى ولا أحد يجيبني.

الوقت يمر سريعًا وأنا أعيش وسط حالة من الذعر والقلق لا أعلم ماذا حدث لهم، ساعة ودق جرس الهاتف ارتجفت أصابعي وأنا أرد، بعد أن لعبت بي الظنون السيئة.

ها هي أخت زوجي تجيبني لتخبرني أنها بخير، ولكن لماذا لا يجيب أحد على الهاتف؟

تؤكد لي أنها بخير وابنتي بخير فهما بأكثر مكان آمن يمكن أن يتخيله شخص ما.

لكن أين زوجي؟

تقول هو أيضًا بخير، تعجبت من كل هذا!

جميعهم بخير وأنا قلقة جدًّا، لا بد أن هناك شيئًا ما تخفيه عني أخت زوجي، سأحاول أن أذهب لهم مرة أخرى، لكن لن أقود السيارة فأعصابي لا تحتمل، حقًّا الطريق طويل. لكن لماذا أذهب إن كانوا جميعًا بخير، سأنتظر عودة جمال.

تمر الساعات بطيئة في الانتظار، أمسك الهاتف وأتجول بين برامجه ولا شيء يمحو خوفي وقلقي. أكتب قليلًا بل كثيرًا، ولا أفكر إلا بزوجي وابنتي.

الآن أفكر بابني أيضًا، فجميعهم بخير.

أنتظر وأنتظر ولا أحد يأتي.

حسنًا سأنتظر غدًا ربما هاتفني أو جاء.

أجمع أوراقي وأضع أقلامي بالكوب الفخار على المنضدة الخشبية، أغلق مذكراتي بعد قراءتها للمرة الألف، كما نصحني الطبيب، هذا سيساعدني على تقبل الواقع وإنعاش الذاكرة، والتعايش وتقبل فكرة أنهم ماتوا جميعًا، ولا أعلم لما يغضب عندما أقول له جميعهم بخير، يحذرني مرارًا ألا أتفوه بتلك الجملة. فلم يمر يوم هنا بدون أن أقول تلك الجملة. جميعهم بخير. هو لا يعلم أنني أقول هذ الكلام وأنا أقصد فعلًا أنهم بخير، فلا يوجد خير أكثر مما كتبه الله لنا جميعًا أحياء كنا أو أمواتًا.

أمضي أوقاتي هنا بالمصحة الخاصة للأمراض النفسية والعصبية. الغرفة التي نسجت من وحي خيالي كل تفاصيلها كي أكتب، برغم وجودي هنا منعزلة عن العالم فلم أتوقف يومًا ما عن الكتابة، تلك الغرفة التي لا تحتوي إلا على خزانة أضع بها ملابسي وأشيائي، سرير، ومنضدة ومرآة كبيرة، أرى فيها كل جسدي بعرض الحائط.

أعيش فترة العلاج بعد صدمتي بموت زوجي وابنتي لأنهما لقيا حتفهما معًا. ولكن جميعهم حقًّا بخير؛ لأنهم أصبحوا معًا وأنا هنا وحدي. أنا لست بخير.

الوحيدة بهذا العالم من تأتي لزيارتي أخت زوجي..

جاء الطبيب ليخبرني أنها هنا، ذهبت لمقابلتها، سألتني:

-كيف حالك جيهان؟

* لست بخير

- حبيبتي، إلى متى ستظلين هنا حبيسة غرفة المرايا كما تسمينها، أريدك أن تتعافي وتعودي لبيتك وعملك الذي ينتظرك.

*ربما وجودي هنا من أفضل ما يمكن. الحياة لم تعد تمنحني السعادة، لماذا أعود إليها؟

- الإيمان بالله سيجعلك تجتازين تلك المحنة، فلا تفقديه.

*ونعم بالله.

- أحضرت لك الطعام الذي تحبينه.

*هل أحضرتِ التاب؟

- أجل، ها هو عزيزتي.

* أشكرك حقًّا على كل شيء.

ذهبَتْ وبقيتُ وحدي، هي من تبقى لي في هذه الدنيا، تهتم بي، تأتي لزيارتي دومًا، تقابلني لنتحدث، وإن كنت نائمة طلت على

غرفتي، تضع لي الأطعمة التي أحبها بغرفتي بجوار الباب وتذهب. أتكئ عليها ولا أجد مبررًا لعودتي للخارج، هنا أشعر بالأمان. لا أحب أن أعود لمنزلي فأعيش بين طرقاته أتعذب، كلما وقعت عيني على غرفة ابنتي وأشياء زوجي المتناثرة في كل مكان، ربما صادفت في أحد أركانه ذكرى تميتني أكثر من مرة، أو أرى لعب ابني فأموت من الحسرة.

أنا هنا أعيش بسلام وهدوء نفسي. مطمئنة رغم كل شيء. هي الوحيدة التي تؤنس وحدتي. أفكاري ثكالى، تؤرق مضجعي من شدة آلامها، وروح مهشمة من مطرقة الواقع، وابتسامة باهتة لا تحمل الصدق، تتزين وتتجمل بألوان ليست ملكها.

مذكراتي هي الشيء الوحيد الذي يمنحني شعاع أمل، كل ما كتبته أصبح اليوم رفيق وحدتي، هو من منحني الأكسجين لرئة أفكاري، جعلتني أكتب وأتخيل وأدون الكثير والكثير.

تبنيت قضية المرأة لأتحدث عنها وعن نساء الوطن العربي، لأنهن يستحققن التكريم. عانت المرأة العربية ولا تزال تعاني من بعض القضايا المعلقة، حتى وقتنا هذا. وأكثرها انتشارًا هي علاقة الرجل بالمرأة، الحل في أن يعامل كل رجل زوجته مثلما يعامل ابنته، وكذلك المرأة تعامل زوجها كابنها. إن تعاملنا بهذا المنطق حلت جميع مشاكلنا الزوجية. حسنًا سأضع القمامة بجوار الباب وأغلق النافذة التي يراقبونني منها خوفًا من انتحاري، وأتناول العقار المهدئ، وأستمع لأسطوانة وأنا ممددة على سريري أقرأ مذكراتي مع

زوجي وأبنائي، ربما تلاقينا قريبًا في الأحلام.

هذه هي انتكاستي الأخيرة. دخولي المصحة النفسية الخاصة. ماذا سيأتي بعدها، لا شيء سيأتي، إن بقيت هنا. البقاء هنا ملاذ آمن. لا وجوه غابرة، لا صراعات، لا زحام، الجميع هنا مسالم لدرجة تفوق الخيال، كل منا متكالب على ذكرياته، لا وطن ولا غربة، الحياة سهلة كما يبدو من الظاهر، صراعنا داخلي، لا يقرأه إلا طبيب أو شخص يحبك. ربما توقفت عن الحياة بالخارج لكن سأستمد الحياة بطريقتي. سأظل أكتب؛ فالكتابة ممر للعالم. أتابع أحداثه من هنا، أكتُب ما يستدعي الكتابة، لا قيد على الصحفي، فهو ناقد ومحلل وكاتب.

أرسل مقالاتي إلى الجريدة التي ما زالت تستقبلها بكل ترحاب، رغم علم رئيس التحرير بمرضي النفسي، لكنه لم يرفض لي نشر مقال أبدًا، هكذا الرجال المحترمون، لا يكيلون الأشياء بمكيالين، يحترمون العقول وليس المظاهر.

كنت أظن أن الحياة ستتوقف هنا، وأن المرض النفسي سيكون نهاية حياتي العملية، لكن هناك من يستطيع أن يمدك بالأمل، ولا يتركك فريسة للوحدة والعزلة، أدين له بالكثير، فهو الخيط الرفيع الذي يربطني بالواقع حاليًّا.

أرسل كل شيء عبر البريد الإلكتروني الخاص بي، كتابي.. مقالاتي.. وأفكر أن أنشر مذكراتي قصة حياتي يومًا ما.

الحياة تجربة لا أحد ينجو منها، يمر بها الجميع، قاسية أحيانًا، وبالرغم من هذا تقدم لنا الحلو بعد المر، فلا تجزع ولا ترفض أو تكن لوامًا. النجاة في الرضا. فكن حامدًا شاكرًا.

الوحدة لا تمثل خطرًا حين تملك ذكريات تحييك، الذكريات كالندي على أوراق الشجر صباحًا، تبلله بعد الجفاف لتعيد له الحياة ليستمر، حاول أن تختار من حولك لأنهم ذكرياتك في المستقبل، فقد تكون مؤلمة؛ فهذه الذكريات شاقة على النفس، إنّها تطعن قلبك مرة ثم يبقى الجرح نازفًا. ولا أنفي جروحي ونزف روحي ولكني الحمد لله ضمدت جروحي، وأصبحت أتعافى على أقل الذكريات.

أصعب ما في ذكرياتنا الحلوة أنها جزء من زمننا المسلوخ عن حياتنا حقًّا عشناه لكن كأننا ما عشناه، نركض من أجله مرة أخرى عسى أن نستعيد صورة من الماضي عبثًا لنحضنه، إنها ظلال وصور ورسوم، تمضي وكأنها لم تكن وما كانت. والذكريات الحلوة نجم في السماء يضيء لنا، ودرة فخر تتلألأ ونزين بها كلامنا، وناي نشدو به، وسفينة أحلام نركبها ونبحر بها عبر الأيام الحاضرة بأمل استعادتها في القادم من أيامنا.

سأبقى هنا بغرفة المرايا وسط أكوام الأوراق والمذكرات أتابع العالم من بعيد، لن أجعل قدمي تحملني إلى هناك مرة أخرى، سأبقى حتى يمل البقاء مني وترفضني الساعة من مللها حينما لا أنظر إلى عقاربها، فلم تعد تهمني دقاتك، لا أنتظر أحدًا ولن يأتي أحد. أيضًا

سأكتفي بجدران الغرفة عالمًا خاصًّا بي. أنعم فيه بسلام.

الحديث عن المرأة وإن كنت لم أذكر جميع النساء اللاتي وضعن بصماتهن على جدران التاريخ، إلا أنني أبرزت من اهتممن بالتعليم، ومن ضحت لأجل حرية الأمة العربية من قوى الاستعمار، فالتعليم والحرية يخلقان مجتمعًا ناجحًا، فلا يوجد مجتمع ناجح يعيش في ظلام الجهل أو قمع الحريات، الحرية تخلق الابتكار والتجديد، فلا تجد طائرًا يحلق في سماء يدوي صوت الرصاص بها. علموا أبناءكم أن الحياة لا تخلد أحدًا، ولكن عمله سيخلد اسمه.

هنا أوثق أعمالًا وأحداثًا، فكما هو معروف أن التوثيق حفظ الأحداث التاريخية والمعلومات العلمية ونقلها من الماضي إلى الحاضر ثم إلى المستقبل وإلى الأشخاص الذين يمكنهم الاستفادة منها، وينطبق هذا على التناقل الشفهي للمعلومات والمعارف والمهارات. هو علم السيطرة على المعلومات التي يمكن أن تتضمن الوثيقة والكتاب والصورة والتسجيلات الصوتية والفيديوهات والنصوص الإلكترونية والعمليات الفنية.

حتى لا يقال إننا ننحاز للنساء..

هذا الكتاب أو هذه الرواية تاريخ على جسد عارٍ، لا يحمل أي اضطهاد تجاه الرجال، إلى الجد، الأب، الأخ، الزوج، الابن.. أنتم شعلة العمل، نبض الشارع، أنتم الصحة والأمان. نستمد منكم القوة والمثابرة. هذا للتنويه فقط.

أنهيت كتابي هذا يوم عيد الأم ٢١ مارس ٢٠٢٠

فإن كان من يقرأ يرفض قضايا المرأة ولا يحب أن يقرأ عنها، فأعتقد أنك تمتلك أفضل امرأة على وجه الأرض < الأم >

عن أبي هريرة رضي الله عنه قل: "جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله.. من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك.. قال: ثم من؟ قال: أمك.. قال: ثم من؟ قال: أمك.. قال: ثم من؟.. قال: أبوك".

(متفق عليه).

فلا تسخر؛ فإن كل شيء بحساب وبرضا الله عز وجل.

تمت

بقلم نجلاء شهاب